

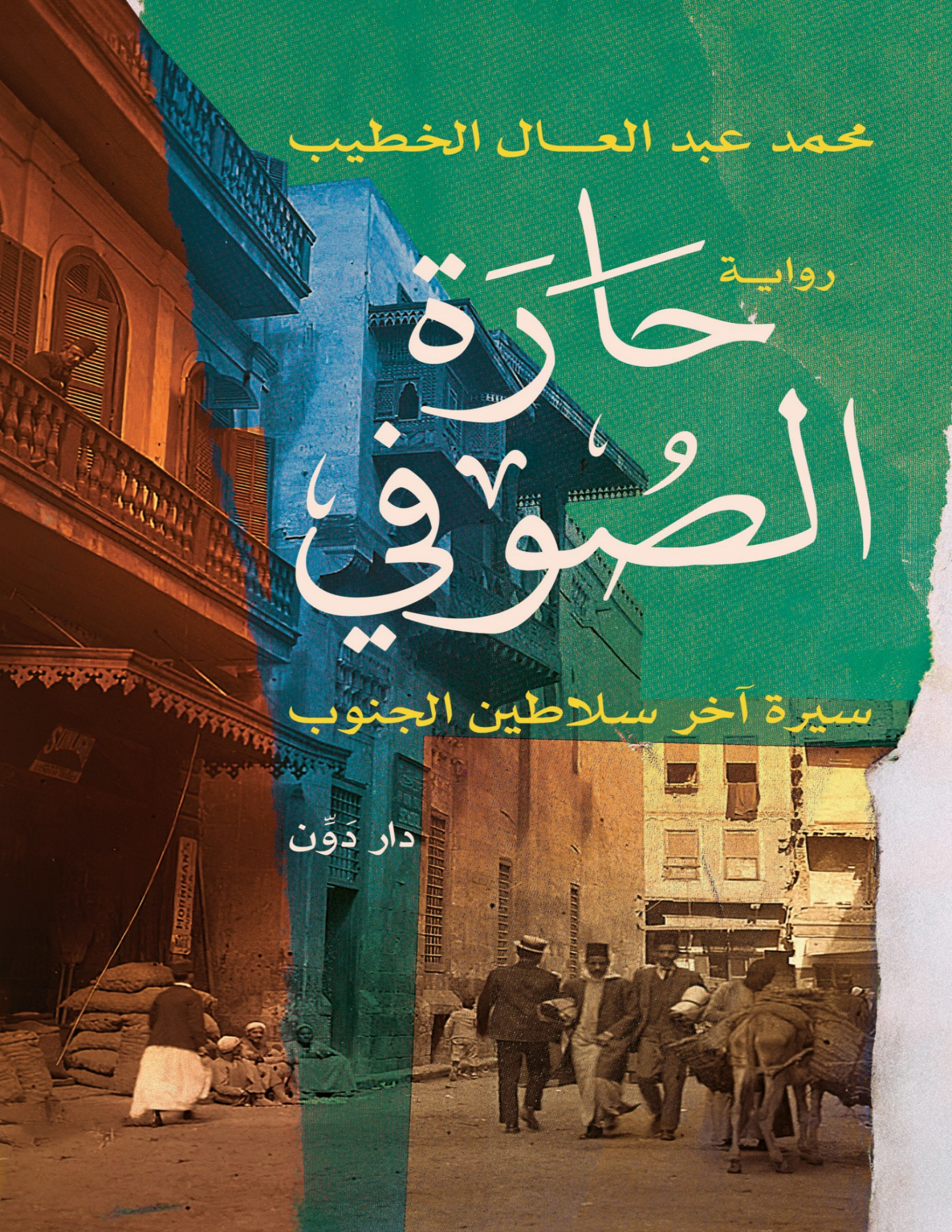
محمد عبد العال الخطيب

رواية

حارة الصوفي

سيرة آخر سلاطين الجنوب

دار دُون



حارة الصوفي

محمد عبد العال الخطيب: حارة الصوفي، رواية

الطبعة العربية الأولى: يناير ٢٠٢٤

رقم الإيداع: ٢٧٣٦٩ / ٢٠٢٣ - الترقيم الدولي: ٩ - ٣٨٩ - ٨٠٦ - ٩٧٧ - ٩٧٨

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر
لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة
بدون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب
لا تُعبر عن رؤية الناشر بالضرورة
وإنما تُعبر عن رؤية الكاتب.

© دار دُون

عضو اتحاد الناشرين المصريين.

عضو اتحاد الناشرين العرب.

القاهرة - مصر

Mob +2 - 01020220053

info@dardawen.com

www.Dardawen.com

محمد عبد العال الخطيب

حارة الصوفي

سيرة آخر سلاطين الجنوب

رواية



إلى روح التقيّة النقيّة أمي

صاحت الديوك في الساعات الأولى من الصباح أعلى منزل الحاج أمين معلنةً عن قدوم يوم جديد، غير عابئة بكونه يوماً غائماً أم ممطراً، فتلك الكائنات خلقت لتلك المهمة وتستمتع بها مهما حدث، ودائماً ما تكون البداية من سطح هذا المنزل ثم يتبعه باقي المنازل، حيث ديوك منزل الزبير، ثم سطح النجومي، ثم سطح التعايشي وشيخ الدين ودار الفضل وبيت النمر، وجميع أسطح السودانيين الذين سيطروا تماماً على حارة الصوفي بمنطقة عابدين، لكن صيحة البداية لا تتغير، وكان الديك يتباهى ويعلن كل يوم أنه ديك منزل الرجل المصري الوحيد في تلك الحارة، خاصة أن مصر تتولى حكم السودان بأكمله!

استجمع أمين قواه كي ينهض من سريره النحاسي الذي أصبح يضيق من ارتفاعه عن الأرض؛ فقدماه القصيرتان أضحتا لا تقويان على ذلك الهبوط الصباحي عليهما ولا الإقلاع المسائي عند النوم، حاول أن يقنع ابنه الوحيد «صلاح الدين» بأن يستبدل به سريرًا آخر أقصر منه، لكن الأخير رفض لأنه أثّرَ باقٍ من والدته التي فقدها وهو صغير فلا يمكنه التخلي عنه.

اتجه الرجل الستيني ليتوضأ ويصلي، فلمح ظله فيما تبقى من مرآة الحائط التي تتعلق ورقة كوتشينة بين ثنايا إطارها، فعاد أدراجه لينظر بعينه اللتين أرهقتهما مهنته كترزي ليتفحص وجهه الخمري، وضع يده على رأسه الذي انسحب منه الشعر إلى الجانبين ثم ذقنه الشائب، وقد ابتسم فظهرت الفراغات بين أسنانه، تلك الفراغات التي أحدثها الدهر، تأملها وهو يقول: «شخّت يا أمين»، ثم اتجه لأداء صلاته قبل أن يجلس على الدكة الجانبية لباب حجرته والمفروشة بمرتبة من القطن ويتزين الحائط من خلفها بقطعة من جلد نمر، بدأ بالحوقلة وأخذ جسده يهتز في ببطء للأمام والخلف وهو يتمتم ببعض الأذكار التي حافظ على ترديدها منذ سنين وقت أن كان جندياً بالسودان وبسببها كتبت له النجاة من أهوال لا يتخيلها بشر.

أمضى بعض الوقت في الذكر والتمتمة حتى تحرك إلى غرفة ابنه صلاح؛ هذا الشاب الثلاثيني فارح الطول ذي البشرة السمراء والشعر الأسود المجعد، اقترب منه ولمس قلاذته الفضية المربعة التي استقرت على صدره، يعلوها رسم بارز لقبة مسجد، لمس قفلها المخفي أسفل القبة الذي بدا كجزء منها وهو يبتسم وكأنه يستعيد ذاكرة السنين، ثم ربت الرجل على كتف ابنه لإيقاظه وهو يقول:

- هيا يا ولدي حتى لا تتأخر على عمك.

ابتسم صلاح الدين وهز رأسه ثم نهض في هدوء، وقبّل يد والده الذي ودّعه واتجه مبكراً كعادته إلى حانوته بالطابق الأرضي من المنزل.

لم يستغرق صلاح الكثير من الوقت حتى ارتدى قميصه وبزته وبنطاله وطربوشه، وتأكد من وجود ورقة مطوية داخل جيبه وانطلق على درجات السلم في سرعة، ألقى التحية على والده ثم

خطا خطوتين ورفع بصره سريعاً إلى اليمين حيث ازدانت إحدى المشربيات الخشبية المنقوشة والمزخرفة بالزجاج الملون، لتظهر خلفها «قمر» بأسنانها التي تبعث ضوءاً كضوء الشمس وسط الغيوم، فارتسمت ابتسامة على شفثيه لتظهر أسنانه البيضاء وهو يوميئ برأسه محيياً، قبل أن يتلفت يميناً ويساراً كمن يخشى أن يراه أحد والتقط الورقة الصغيرة التي ألقها له الفتاة، ثم اطلع عليها في عجلة وأوماً لها برأسه موافقاً ثم اتجه يساراً صوب ميدان الأوبرا حيث يستقر تمثال إبراهيم باشا، عبره مروراً على قهوة «متاتيا» حتى بلغ ساحة العتبة الخضراء ليستقل الترامواي الأصفر رقم ٣٠ المتجه إلى بولاق، أعطى الكمساري خمسة مليمات والتقط تذكرته، ثم ألقى نظرة سريعة عبر النافذة الواسعة على القضبان الممدودة في الأرض، وأخرى على الأسلاك المنصوبة في الهواء والمتصلة بعربة الترامواي لتعطيها القدرة على التحرك، كان يخشى أن يتعطل في هذا اليوم المهم، ثم زاغ ببصره وشرد بفكره في المهمة التي أوكلها إليه «شحاتة أفندي» مديره بالوقائع المصرية، المهمة التي تستوجب ضرورة التأكد من تغيير صورة العلم المصري المطبوع على الصفحة الأولى من جريدة الوقائع المصرية في مطبعة بولاق، وقد كانت مهمة في غاية الخطورة؛ لأنه منذ أيام أعلنت بريطانيا⁽¹⁾ خوضها الحرب العالمية الأولى ضد ألمانيا، وكانت الدولة العثمانية تتحاز للأخيرة، فكان من الطبيعي أن تأمر إنجلترا التي تحتل مصر بتغيير العلم العثماني ذي الهلال الواحد والنجم الذي يوجد في صدر جريدة الوقائع، بل تغيير علم الدولة المصرية كله، ليعود العلم المصري الذي استخدمه الخديوي إسماعيل ذو الأهله الثلاثة البيضاء، أمام كلٍ منها نجم أبيض ذو خمسة أطراف. كان العاملون في الوقائع المصرية هم أول من يدرك خطورة هذا التعديل، فلقد أرسلت إنجلترا ثلاثة قرارات وأعطت الأوامر بأن أحد هذه القرارات سيُنشر بالوقائع وجميعها كانت في غاية الخطورة، فإما أن تكون مصر بريطانية وتتبع المملكة البريطانية، وإما سلطنة، وإما أن تظل الحماية كما هي.

انشغل ذهن صلاح الدين بأمر تلك القرارات كثيراً، فبريطانيا لن تترك تلك الفرصة أبداً، فالدولة العثمانية قد تضحى عدواً لها فلماذا لا تغدو مصر بريطانية وتحمل التاج البريطاني على علمها كما فعلت في الهند؟! ثم انقطع حبل تفكيره فجأة عندما دق جرس الترامواي وأعلن الكمساري بلوغ محطة بولاق، فانطلق صلاح إلى المطبعة وهو حريص كل الحرص على الورقة التي وضعها في جيبه، والتي تحمل الرسم الجديد الذي سيُطبع على الوقائع المصرية، حيث أصبح تحت كلمة الوقائع المصرية تاج داخله علم مصر الجديد، وكُتبت تحتها كلمة «جريدة رسمية للحكومة المصرية».

انطلق صلاح إلى مقر المطبعة، وفي محاولته للإسراع اصطدم بكتفه جندي بريطاني وهو يشرع في اعتلاء دراجته البخارية، فتناثرت الأوراق التي كان يحملها الجندي على الأرض، وظهرت مجموعة من الخرائط لمصر وجزيرة العرب وفلسطين، انكبَّ الرجل في سرعة لجمعها،

فعاونه صلاح وهو يعتذر له، كان للدراجة عربية جانبية يجلس بها رجل يرتدي عباءة وكوفية وعقالاً، لذا وجّه صلاح اعتذاره لهذا الرجل عسى أن يترجم اعتذاره للجندي، لكنه تفاجأ بأن ملامح الرجل أجنبية تمامًا؛ فقد كانت عيناه شديديّ الزرقة، التي انتبه لها صلاح الدين عندما جحظت عينا الرجل عند رؤيته القلادة التي تتدلى من عنقه، فابتسم صلاح وأبرزها للأمام وهو يقول له:

- تلك ليست مكة، وإنما مسجد بالسودان.

فهز الرجل رأسه وكأنه يفهم حديثه وأشار للجندي بالانطلاق، واختفى مع دراجته البخارية في ثوانٍ.

دلف صلاح إلى المطبعة وقدم الورقة المطوية إلى مديرها، وشدد عليه في أمر تغيير العلم، هزّ الرجل رأسه قائلاً:

- لا تجزع يا ولدي، لقد علمت بالأمر، اعتبر أن الأمر قد تم.

ثم أخرج صلاح ورقة أخرى وأعطاهما للرجل كي يوقع عليها بالعلم والاطلاع، كاد يخطئ ويعطيه ورقة «قمر»، لكنه انتبه في اللحظة الأخيرة واستبدلها، وبعد أن وقع الرجل، صافحه وانطلق إلى خارج المطبعة، لكنه أسرع الخطى؛ رغبةً في استغلال وجوده ببولاق ليذهب إلى الوالي أو الحاج «خير» أحد قاطني حارة الصوفي، التي تركها منذ بضع سنين واستقر في بولاق فلا يبعده عن المطبعة سوى بضع حارات، أقام بمنزل قديم هو وزوجته وابنته، فتح حانوتاً اسمه قباب السودان، ليصنع الجفان⁽²⁾ والقذور وتنانير الطين. بعد دقائق بلغ صلاح حارة الوالي ليجد الرجل الستيني قد انكب على إحدى القذور، وقد ظهرت عوامل الدهر على ظهره الذي انحنى وتقرّس وحوته الشملة⁽³⁾ التي تدثر بها فوق جلبابه الأبيض، جميعها بطعم السودان لم يشذ عنها سوى الوشاح الأزرق الحريري الذي يطوق رقبتة.

- السلام عليكم يا مولانا.

لم يرفع الرجل رأسه، بل استمر في عمله فقد تعرّف على صاحب الصوت، وظهرت بشاشة على ملامحه ظهرت في نبرة صوته وهو يقول:

- وعليكم السلام يا «سلاطين»؟ اجلس يا ولدي. وأشار له كي يجلس إلى جانبه على العنقريب⁽⁴⁾، فجلس صلاح الدين أو «سلاطين» كما ينطقها أهل المنطقة بحارة الصوفي، واستعاد لغته السودانية التي ينطق بها مع أهالي حارته، وربت على كتف الرجل وهو يقول:

- صباحك عوافي⁽⁵⁾ شيخنا؟.

عوافي صباحك...

أجاب الرجل ثم رفع رأسه وأمعن النظر للحظات في وجه سلاطين وكأنه يتذكره، ثم ابتسم وهو يتساءل:

- داير شنو يا سلاطين؟(6).

توي(7) حملوني شغلانة بالحكومة وراتبي جدًّا ممتاز يا مولانا، دايرك تعاود موضوع قمر من تاني يا شيخنا...

قبل أن يكمل جملته نهض الرجل واستند إلى عكازه وتحرك ببطء أمام الحانوت، وهو يقول:
- مسيخ(8) يا ولدي حديثك، قلت لك من قبل ما هيرضون بيك إلا إذا كنت مثلهم سلطان من السلاطين.

وبعد ما ابتسم الرجل، ثم التفت له وأمعن النظر إليه، وقال:

- كحل عيونك يا ولدي(9)، اسمك سلاطين لكن ما يقبلونك إلا إذا كنت سلطان، روح يا «أبو فلجة(10)»، يوم ما تبقى سلطان يوم ما يقبلوك.

- صباح الخير يا شيخنا.

قالها أحد المارين بالطريق، فأجابته الرجل وهو يعود إلى جلسته:

- صباح الخير يا ولدي.

ثم التفت إلى سلاطين وهو يقول:

- روح يا سلاطين لما يتغير حالك تعالى وأنا أساعدك وقبلي ربك الكريم.
فتساءل سلاطين:

- لا فائدة يا مولانا؟.

ما تتعب روحك، أنا داريهم عنك يا ولدي، «نمر» هذا لا يقبل إلا سلطان أو سحار، ربنا في عونك.

هز سلاطين رأسه وصافحه في يأس، وانطلق مبتعدًا وقد ظهرت علامات الانكسار على وجهه، فهو يعلم أن «خير» هو الوحيد القادر على مساعدته كي يتقدم لخطبة «قمر» ابنة «محمد ود نمر»، حيث إن الجميع يحترمه ويحبه ويعتبرونه وليًّا لهم، لكنه رغم ذلك ترك الحارة منذ بضع سنين دون أن يفصح عن السبب واستقر في بولاق.

تابع الشيخ «خير» سلاطين وهو يبتعد، وأخذ يهز رأسه لأعلى وأسفل في ببطء وكأنه يقرأ أوراذه وأخذ يردد ويكرر:

يا شاكياً همّ الحياة وضيقها

أبشر فربك قد أبان المنهج

من يتقّ الرحمن جل جلاله

يجعل له من كل ضيق مخرجًا

أسئلة كثيرة ضربت برأس سلاطين وتساؤلات عدة، فأخذ يردد في قرارة نفسه: «لقد رُفض طلبتي لخطبتها من قبل عندما كنت أعمل مع أبي ترزيًا، والآن تغير الأمر، كيف أكون مثلهم يا مولانا؟ كيف أكون ثريًّا؟ هم يقطنون تلك الحارة ولكنها ليست مجرد سكن فهي كما الوطن بالنسبة

إليهم، وجميعهم أثرياء لا أعرف كيف؟! لقد التحقتُ بتلك الوظيفة بمحض المصادفة عندما تصادف مرور أحد كبار الضباط إلى جانب الحارة، وعندما رأى أبي تذكَّرَه فقد عاشره بقصر الخديوي عباس حلمي الثاني قبل أن يترك أبي الخدمة ويعمل تِرزياً ويُلحقتني بالعمل معه، لا أملك أي شيء آخر، لا مالاً ولا جاهاً، فكيف سيتغير حالي يا مولانا؟!.

ضربت الحيرة برأس سلاطين وقبل أن يستقل الترامواي التفت إلى حيث ترك الشيخ «خير» متمنياً أن يصيح عليه ويغير رأيه، لكنه لم ير سوى «شمس» ابنة خير وهي تربت على كتف أبيها، فاستقل الترامواي إلى مبنى المطبوعات الحكومية بوزارة المالية بميدان «لاطوغي» ليخبر رئيسه بتمام المهمة.

ارتقى درجات السلم الرخامي البيضاء سريعاً حتى بلغ مقر العمل بالطابق الثاني، ثم ألقى التحية على زملائه وأخرج من جيبه الورقة التي قام بالإمضاء عليها رجلُ المطابع ببولاق، اتجه بعدها إلى مكتب رئيسه بالعمل الرجل الشامي «شحاتة أفندي شقير» وسلمه الورقة، وعاد إلى مكتبه وهو شارد الذهن، وسؤال واحد يضرب برأسه: «كيف أكون مثلهم؟».

لم يستفِق إلا على صوت زملائه بالمكتب حوله وهم يبدون دهشتهم من الأنباء التي انتشرت مؤخراً، فقد عزلت بريطانيا الخديوي عباس حلمي الثاني، ولم تقرر شكل الحكم في مصر بعد، ويُقال إنها في مفاوضات مع حسين باشا كامل ابن الخديوي إسماعيل ليتولى حكم مصر لكنه أبدى تحفظه، وتتمثل الصدمة في هوية الرجل الذي رشحته بريطانيا ليتولى حكم مصر حال استمرار رفض حسين كامل، حيث إنه لم يكن مصرياً ولا تركياً ولا حتى بريطانياً، بل كان هندياً، إنه «أغا خان»، كان هذا الاسم كافياً بأن يُخرج صلاح من شروده، لينشغل رأسه بتساؤل آخر: «هل سيحكم مصر مصري أم تركي أم بريطاني أم هندي؟ من سيجلس على عرش مصر؟».

- لماذا يضعون الصبار على القبور؟ هل هي مواساة لزائرها أم لتعزيز صبر المتوفى على الهجر مثلما ينمو الصبار رغم ندرة المياه؟ آاه يا السودان.

تمتم «محمد بن عمر بن نمر» بتلك الكلمات في تودة وبصوت رخيم وهو يزور ضريح والده في مقابر الإمام الشافعي شرق القاهرة أسفل سفح جبل المقطم، فقد كان ينظر إلى شاهد قبر والده «عمر» ويفرغ طاقة الغضب وهو يقبض على لحيته البيضاء كأنه يشذبهها، ثم التفت إلى ضريح إبراهيم بن محمد علي الذي يبعد عدة حارات والمزخرف بأبيات الشعر والمدح والرثاء، ويعلوه الطربوش التركي باللون الأحمر، وهو يتمتم وكأنه يتحدث إلى والده داخل قبره: «لم يحترموا مذهبنا حتى، لم يسألوا أحدًا منا ما إذا كنا أحنافًا أم مالكية أم حنابلة! قبل أن يضعونا بمقابر الشافعي، لقد أرادونا هنا لأن أبناء «محمد علي» هنا، أرادونا هنا ليقدم المتوفون منا الولاء لموتاهم»، ثم أعاد النظر إلى ناحية قبر إبراهيم باشا ابن محمد علي متعجبًا: «أهؤلاء من يؤنسون وحدتك! لله الأمر من قبل ومن بعد»، ونظر إلى قبر والده قائلاً: «لقد وضعوا طربوشًا على الشاهد وليس عمة كعمتنا، لا يعلمون أنها لا ترمز إلى الفخر والزهو قدر أنها تعبر عن الاستعداد للدفن بها متى جاء الوقت في أي مكان وزمان، صدق من قال: «الذئب والنعجة في سقيفة، واللص والتاجر في قطيفة».

نهض من جلسته على العنقريب الذي أعده له «مرسي» التربوي أمام قبر والده، وربت على شاهد القبر وكأنه يواسيه وهو يقول: «لن أترك حقك أبدًا يا والدي ولن أترك حق جدي»، ثم مسح بطرف عبايته الشاهد المنقوش عليه «عمر ود محمد ود نجم» - سلطان شندي⁽¹¹⁾ بالسودان، وفي تودة وعلى مهل تحسس طريقه بعدما انتصف النهار إلى خارج المقابر وهو يتمتم: «السلام عليكم أهل الدار، أنتم السابقون ونحن اللاحقون»، وفور بلوغه البوابة الرئيسية نظر إلى حارسها الذي انطلق نحوه ليقبض على يده ويقبلها قائلاً:

- بدري يا مولانا.

ومن خلفه زوجته «عفيفة» التي اتسعت ابتسامتها لرؤيته وهي تقول: ياما أكثر خيرك يا مولانا.

هز محمد ود عمر رأسه وكأنه يشكر الزوجين، ثم سأل:

- وبين الحاجة؟.

ارتسمت ابتسامة على وجه مرسي وهو يسلمه إياها ويقول:

- وقرأت عليها يا مولانا زي ما قلت من الآية ٨ لحد ١١ من سورة محمد⁽¹²⁾، شيخنا حط

البودرة وقال عليها بتخرب الدنيا، انفضل يا مولانا.

أجابه مرسي وهو يناوله قطعة من القماش الأسود المعقوف برابطة حمراء أصغر من كف اليد،

فالتقطها الرجل ووضعها في جيب عباءته ثم أخرج منه ورقة نقدية وضعها في قبضة يد مرسي الذي اهتز لها طرباً وبرقت عيناه عند رؤيته لتلك الثروة، فقد كانت جنيهاً كاملاً، فأخذه وهو يقول:

- تسلم وتعيش، صحيح سلطان ابن سلطان.

- نادِ على الحنطور.

- جاهز يا مولانا.

انطلق مرسي عدة خطوات وصاح على سيد العربي ليقف كالعادة إلى حارة الصوفي بعابدين، حيث استقل الرجل الحنطور وأخذ ينفذ الغبار الذي علق بالعباءة، لم يهتم لحديث سيد وترحيبه فقد اعتاد طريقته في الحديث والتلق، وعندما همَّ بالعبور إلى شارع عباس الأول⁽¹³⁾ حتى يصل إلى شارع المغربي⁽¹⁴⁾ ومنه إلى حارة الصوفي، استوقفه «ود نمر» مشيراً بيديه قائلاً:

- من جهة شارع كلوت بك.

فهز الرجل رأسه طاعةً للأمر، وهو يقول:

- صح كده يا سيدنا، كذا مرة أقول لسيادتك كده أسهل، من عند شارع إبراهيم باشا يبقى أسهل بكثير.

لم يجبه محمد بن نمر وإنما ارتسمت علامات غضب على وجهه لم يرها العربي كما لم يَر أسباب رفض عبور محمد بن نمر من هذا الطريق الذي ازدان بفندق شبرد، هذا القصر المشيد والممتد على طول الطريق بنوافذه الزجاجية الملونة، فقد شيده «محمد علي» على أنقاض قصر المملوك محمد بك الألفي بعدها تملكه القائد العسكري «محمد بك الدفتردار»، ثم اختلطت نظرات الغضب بمعالم الأسى وهو يحدث نفسه: «لقد قضى هذا الدفتردار على سلطان جدي «نمر» وقتل أهلي وعشيرتي، جاؤوا ليتلصصوا ويشحذوا فغدروا بنا، أتى إسماعيل بن محمد علي للسودان غازياً ودخل قبيلتنا شندي عام ١٨٢١⁽¹⁵⁾، رحب به جدي نمر وجاءه طائعاً، لكنه أخذ الجمال والعتاد عنوةً وأهانته أمام قبيلته، ثم ضرب على جدي جزية قدرها ألف شاة وألف عبد وألف جارية، فامتثل له جدي تماماً، وكان يعلم أنه لن يستطيع إعداد المطلوب، فأعد خطته بأن أعد لإسماعيل ولرجاله وليمة كبيرة ودعاها إليها هو وكبار ضباطه وجعلهم يكثرون من شرب «المريسة»⁽¹⁶⁾، حتى جنَّ الليل فجمع جدي رجاله وأحاطوا المنزل بالهشيم وأشعلوا فيه النار، فاحترقوا جميعاً ومعهم إسماعيل بن محمد علي، فلما علم الدفتردار بالأمر، قتل أهل القبيلة وأحرق ما فيها، واقتنص من أهلها عبيداً، أرسلهم إلى مصر ومات جدي غريباً على أراضي الأحباش، ثم يأتي الإنجليز ويفعلون ما فعلوه بالسودان، كيف أمُرُ أمام هذا القصر لأتذكر ما فعلوه بجدي وبلدتي، إلا هذه المرة وهذه المرة فقط، في مثل هذا اليوم المشؤوم قتلتم أهلي جميعاً، وها أنتم أولاء تجتمعون جميعاً اليوم في منزل القاتل فالיום يوم هلاكهم».

لم تمض دقائق حتى بلغ الحنطور ناصية شارع سليمان الحلبي الملاصق لفندق شبرد، وعندها

استوقفه عسكري مصري شهراً عصاه أمامه ليقف الحنطور ويأمر العربي بتحويل مساره، لقد اتخذت قوات الحلفاء الفندق مقرّاً ومركزاً لها منذ عدة أيام في تلك الحرب التي اشتعلت في أوروبا وشمال إفريقيا.

وحينها حاول سيد أن يغير مساره فأمره محمد نمر بالاستمرار، ليجيبه سيد:

- إزاي يا مولانا، ما انت شايف العساكر!

وعند محاولته تغيير المسار هبط محمد نمر مسرعاً قبل أن يتحرك سيد، وفي سرعة أخرج القماشة وألقاها لأكبر مسافة تجاه الفندق، لم يستوضح الجنود ما حدث أو لم يكثرثوا فهي حجر لا أكثر، لكن ما فعله بعدها أربك المشهد تماماً، فقد ارتمى على الأرض وأمسك أذنيه بكفيه، وكانت تلك الحركة كافية لإعلان الحرب في شارع إبراهيم باشا وحارة سليمان الحلبي، والسماح للجميع بأداء مشهد تمثيلي، فالجميع أضحى على الأرض يقبض على أذنيه بل إن البعض بدأ الصراخ لا سيما من شرفات الفندق، ارتبك المشهد بالكامل، ولم ينتبه أحد إلى إنهاء هذا العبث إلا حمار سيد العربي الذي أطلق صراخاً ونهيقاً، لا تعرف إن كان يضحك على الجميع أم يستهزئ بما حدث، أم ينهيه سيد للانطلاق، وبالفعل استجاب الأخير إلى تنبيه حماره فوكز الحمار بعصاه وانطلق عائداً، وفي تلك اللحظة نهض العسكري ووجّه عصاه أعلى رأس محمد النمر وهو يقول: «رحت في داهية، إوعى تتحرك»، لم يستطع محمد نمر أن يكمل وقفته بل جثا على ركبتيه كمن يصلي بينما اقترب أحد الجنود بعصاه في مشهد بطولي بالنسبة إليه، حاول بعض أصدقائه من الجنود إثناؤه عنها لكنه حاول استكشاف تلك القنبلة صائحاً:

- دي مستوردة يا أفندي عليها شريط أحمر.

ليظهر في المشهد من يحتاج إلى خطوة واحدة فقط ليتقلد منصب حكمदार القاهرة، إنه الداهية البريطاني «توماس راسل» وكيل حكمدارية القاهرة، والذي أطل من إحدى نوافذ الفندق بعدما امتلأت شرفاته بممثلي قوات الحلفاء، ثم أشار بصرامة إلى أحد الضباط الإنجليز كي يستطلع أمر اللقافة، فاقترب الرجل مشهراً مسدسه لأعلى مطلقاً عدة رصاصات في الهواء وكأنه يعيد ضبط المشهد بطريقته ثم اقترب من الجندي المصري وهو يعلم بوجود من يشهد على هذا الموقف من عضاء قوات الحلفاء في شرفاتهم، فاقترب ودسّ بعصاه القماش لكن لم يحدث أي شيء، فاطمأن قلب الضابط، واقترب في شجاعة أكبر محاولاً فك الرباط الخارجي لقطعة القماش وسط دهشة الجميع من تلك الشجاعة الفائقة، وحينها ظهرت المادة البيضاء والورقة التي تحوي الآيات فاقترب الضابط بأنفه في محاولة لشم رائحة تلك المادة، وأدرك أنها مادة البارود، لقد اعتقد هذا الساذج الملقى على الأرض أن إلقاء البارود كافٍ لاشتعاله ولم ينتبه لضرورة وجود شعلة تبدأ الاحتراق من الفتيل الذي يتمثل في الرباط الأحمر، هنا اقترب الضابط وأمسك بالقماشة ورفعها عالياً وهو يخاطب توماس راسل الذي ارتسمت على وجهه ابتسامة نصر وهو يقول:

- لا تخافوا، لقد انتهى الخطر.

وفي لحظة بدأت شرفات الفندق التصفيق، بينما أشار راسل إلى أحد الجنود ليصطحب صاحب الفضل في هذا الإنجاز إلى مكتبه، فقام الجندي بتقييد يد «نمر» من الخلف واصطحبه إلى مكتب الأمن الملحق بالفندق، ثم ألقوه على الأرض وأغلقوا الغرفة بعد تأمينها باثنين من الجنود. في تلك اللحظة كان سيد وحمارة ينهبان الأرض نهبًا في محاولة للهروب، وبالفعل لم ينتبه أحد لهما، حتى بلغا مشارف المقابر، فقد كان الرجل قلبه ينتفض وهو يصيح:

- يا مرسى يا مرسى.

حتى انتبه الأخير لهذا الصراخ من داخل غرفته الملاصقة لبوابة المقابر فخرج مسرعًا وقد ضربت بلامحه علامات القلق وهو يقول في صوت يشبه الرجاء:

- "خير يا سيد فيه إيه؟".

- الراجل الله يخرب بيته...

- مين؟

- السلطان.

- تقصد محمد نمر؟

- أيوه يا سيدي، الراجل كان معه قنبلة رماها على شبرد والعساكر مسكوه.

ارتبك مرسى وجحظت عيناه متسائلًا:

- مسكوه إزاي؟".

- ده بايع القضية يا عم، دخل عليهم وهو ماسك القنبلة في إيدو وقدام العسكري رماها على الفندق.

فتمتم مرسى: "هذا الغبي ودانا في داهية!".

- بتقول إيه يا مرسى؟

- مفيش مفيش.

- أنا جاي أبلغك إني ماشي ومش جاي اليومين دول لحد منشوف هيحصل إيه...

قالها الرجل وانطلق بحماره الذي أطلق صيحة وداع، أو ربما كان يستكمل سخريته منهم!

أما مرسى فقد انطلق إلى حجرته ليبلغ زوجته "عفيفة" بأن تجمع أغراضهما في أقصى سرعة،

وحين تساءلت عن السبب أخبرها بما حدث، فارتسمت معالم الغضب على وجهها وهي تقول:

- هو السلطان السوداني ده مبيجيش من وراه إلا الأذى!

فتساءل الرجل في تعجب:

- أذى إيه؟! ده راجل مقرش وفلوسه حلوة، إنتي نسيتي الجنيه ولا إيه؟! الراجل لما طلب

الموضوع ده مني قلت نطلع منه بقرشين، أكيد هيديها لحد مش هيرميها هو بنفسه، طلع مجنون

وأنا مش عارف!".

اقتربت من زوجها ووضعت يدها على كتفه وتساءلت:

- "طب وسي "محمد" مش هتحدزه؟".

- مفيش وقت.

- يا راجل ده سبب الرزق، أنا هروح أبلغه بسرعة.

قالتها وهي تقترب مسرعة من الباب فتردد مرسي لثوانٍ حتى قال:

- لا خليكي إنتي، هروح أنا.

ثم انطلق عبر طرقات المقابر إلى قلبها الأسود مقتربًا من أحد الأحواش وهو يصيح:

- يا شيخ محمد يا شيخ محمد.

ليخرج شاب بمنصف العشرينات خمري الوجه أشعث الشعر، لحيته طويلة تبلغ أسفل رقبته،

وهو يتساءل:

- "إيه يا مرسي حصل إيه؟".

- الراجل اتقبض عليه.

- تقصد مين؟

- نمر.

اضطربت ملامحه وهو يتساءل مرة أخرى:

- "فجر القنبلة بنفسه؟!".

- منفجرتش ولا حاجة، رماها كده ومنفجرتش!

- الغبي بيحسبها عمل من الأعمال، وما أشعلتش الفتيل!

- أنا جاي أقولك عشان أنا هلم هدومي أنا وعفيفة وأهرب للبلد يومين كده لحد ما نشوف إيه

اللي هيجصل، شوف إنت هتعمل إيه، لازم تسبب المكان.

هز محمد رأسه بالإيجاب، وسرعان ما حفر حفرة صغيرة بأحد أركان الغرفة وأخفى بها شيئًا،

وبالفعل لم تنقض عدة دقائق حتى كان الطالب "محمد شكري الكرداوي" المنتمي فكريًا إلى الحزب

الوطني والذي منعه الحرب من استكمال دراسته بالأستانة- يهرول خارج أسوار المقابر وهو

ينظر بحرص إلى الورقة التي أخرجها من جيبه، والتي كانت الأمل الأخير بالنسبة إليه.

قبل التفجير ببضعة أسابيع:

يعلو صوت أبواق الباخرة «كريم» معلنةً الاستعداد للرحيل من شواطئ الإسكندرية متجهةً إلى شاطئ البوسفور بإسطنبول، بينما يصعد المسافرون إلى سطحها وسط ميناء يزخر بالسفن الكبيرة المحملة بالبضائع والبحارة التي تطفو بحمولتها فوق البحر، وأخرى تمتد إلى جانبها، محفة كبيرة وصلت إلى الشاطئ للتو، وعلى تلك المحفة يحمل العمال البضائع إلى أرض الميناء الممتدة؛ حيث توجد أمواج من البشر، أشخاص تتدافع، وأكتاف تتضارب، الجميع يسابق بعضهم بعضاً، قبل أن تتحرك السفينة «كريم» حاملةً مئات البشر سائحين وعمالاً وعلماء وفنانين، وطلاب علم ممن أرادوا استكمال دراستهم بإسطنبول.

لم تتجاوز السفينة رؤية العين مبتعدة عن الميناء حتى ظهر «محمد شكري الكرداوي» لا يقوى على التقاط أنفاسه المتلاحقة ويتساقط العرق من جبهته، وهو ينظر في رثاء إلى السفينة ويخلع طربوشه ثم يلقي بحقيبه مرتميًا إلى جوارها على الأرض في محاولة لاستعادة أنفاسه المتلاحقة، تابع محمد السفينة في بؤس وهو يهز رأسه يمينًا ويسارًا ويلوم نفسه على هذا التأخير غير المبرر، لقد حاول أن يوفر أجرة الفندق في الليلة التي تسبق الرحيل للخارج، فانتقل في نفس يوم انطلاق السفينة من المنصورة إلى الإسكندرية، وها هي ذي النتيجة، فقد ضاعت عليه الرحلة، ولا يقوى على العودة إلى بلدته مرة أخرى، مما جعله يفكر شاردًا فيما سيقول لأخيه صابر، هذا الأجير الذي تحمّل مشقة تعليمه حتى حصل على شهادة الكفاءة وكان كل أمله إكمال مرحلة البكالوريا، حتى لاحت الفرصة لهذا الشاب عندما رأى الشيخ عبد العزيز جاويش مدير تحرير جريدة اللواء الناطقة باسم الحزب الوطني في مؤتمر عقده في مدينة الزقازيق بالمنصورة عقب خروجه من السجن وتسطيره تقديمًا لكتاب «وطنيتي» للشيخ علي الغاياتي الذي هاجم فيه الإنجليز، فحكّم عليه بالحبس هو ورئيس الحزب الوطني حينذاك محمد فريد الذي هرب إلى إسطنبول.

انتهز محمد شكري فرصة وجود الرجل بالزقازيق، وتحدث إليه حتى أُعجب به الشيخ وبشغفه بالعلم لا سيما في الكيمياء، وتواصل معه حتى بعد إبعاده عن مصر إلى إسطنبول، واستمر في مراسلته حتى اطمأن إليه، وجاء اليوم الذي أرسل في طلبه لقضاء منحة دراسية بإسطنبول تسلّم أوراقها عن طريق الحزب.

مرّ إلى جانبه أحد العمال بالميناء، فقبض على يديه وهو يسأله وقد تقطعت أنفاسه:

- هي المركب اللي طالعة إسطنبول إمتي؟

فأدار الرجل رقبته تسعين درجة وأشار إلى المركب الذي ضرب عباب البحر وهو يقول:

- ما هي طلعت يا فندي.

أنا أقصد اللي بعدها.

مراكب إسطنبول بتطلع كل أسبوعين يا فندي، أي خدمة تاني؟
آه لو سمحت منين أقدر أحجز تذكرة؟

شركة البواخر الخديوية في الأزاريطة على البحر.

شكر محمد شكري الرجل ولملم حقيبته وطربوشه واتجه إلى خارج الميناء في بطء شديد، وهو يفكر إلى أين يذهب، فلا يمكن أن يعود إلى أخيه الذي كان يحتفل هو وأولاده بالأمس برحيله لإكمال دراسته، وهو يعلم أنه في حقيقة الأمر يحتفل بذهابه عنه.

انطلق الرجل إلى بوابة الميناء، بينما لا يملك سوى طريق وحيد وهو أن ينفق ما ادخره من نقود في حجز تذكرة أخرى، لذا لم يتردد وانطلق إلى الأزاريطة، بينما لم يرغب في إنفاق مليم واحد حتى يحجز تذكرته فهي الأمل في حياة جديدة، فاتجه إلى البحر من منطقة المنشية وأخذ يسير إلى جانب الرمال⁽¹⁷⁾ حتى بلغ الأزاريطة، منطقة راقية مبانيها يغلب عليها الطابع الروماني، وفي الجهة القبلية منها يقع الحجر الصحي، وهناك رأى لافتة الشركة وإلى جانبها العلم المصري ذا الهلال والنجمة الخماسية واضحًا إلى جوار بوابة الشركة، فبدأت خطواته تترنح وهو مقبل على الدخول متسائلًا: «هل ستكفي الأموال لحجز تذكرة أخرى؟!»، ثم استقبله موظف الشركة بابتسامة وقبل أن يسأله عما يريد ألقى شكري ما في جعبته:

- عايز أقرب رحلة لإسطنبول وبأقل سعر.

حاول الموظف أن يعرض عليه بعض مزايا الدرجات المختلفة على الباخرة، ولكن طلبه كان محددًا، فقد أراد أقلها سعرًا على الإطلاق.

بعد دقائق خرج شكري وقد ارتسمت ابتسامة باهتة على شفثيه وهو يقبض على تذكرة سفره، فقد عاد له الأمل، ولم يتبق له سوى بضعة قروش تعاونه على العيش لمدة أسبوعين حتى تاريخ انطلاق الباخرة دون أن يعلم إذا كانت ستكفيه أم لا، اتجه صوب البحر دون تردد كأنه أراد أن ينفذ عن نفسه حمل كل هذه الهموم، ثم خاض بقدميه في الرمال وكلما اقترب من المياه ازدادت ابتسامته اتساعًا حيث لم يسبق له أن رأى البحر بهذا القرب من قبل، فأدرك مدى جماله والسبب الذي يجعل الجميع يتغنون بالإسكندرية ساحرة القلوب، نظر بعدها إلى الجهة الشرقية من الشاطئ ليرى من بعيد معسكرات الإنجليز التي جعلت لها موطئ قدم على رمال الإسكندرية في منطقة مجاورة أطلق عليها «كامب شيزار»، ثم ألقى الحقيبة على الرمال بعدما وضع بها تذكرته وقروشه وجلس على الصخرة وأنزل قدميه في الماء، وبغفوية بدأ يضرب قدميه بالمياه، بعدما تناسى ما كان يشعر به من قلق وتوتر منذ لحظات! ظل يتلقت يمينًا ويسارًا متأملًا أمواج البحر المختلف، فقد كان يعتقد كغيره من الناس أن الأمواج لها طبيعة واحدة، لكنه تفاجأ عندما رأى الموجة الخجلة التي تطير في الهواء ثم تتساقط إلى جانبها بعض القطرات لتعبر عن خجلها، والموجة الغاضبة التي تضرب الصخر وتريد أن تخترقه بل وتعاقب من يعتليها، والموجة المترددة

التي لا تريد أن تصل إلى أعماق الرمال المبتلة عند بلوغها الشاطئ، والموجة المنهكة من طول الرحلة، ثم انزلت قدمه فتشبث بالصخرة منزعًا، لكنه وجد قدميه ثابتتين على القاع، ازدادت ابتسامته اتساعًا حتى أصبح في لحظة مجرد طفل يلهو بالأمواج والرمال.

تسلق الصخرة ثم اتجه صوب الرمال ليستلقي عليها ناظرًا إلى السماء مبتسمًا وهو يقول: «غداً نلتقي يا شيخ جاويش»، وأخذ يستقبل أشعة الشمس الساطعة وأطبق عليها بجفنيه ليستمتع بدفئها متناسيًا كل شيء.

بعد نصف ساعة استيقظ واستجمع حقيقته واتجه ليسأل عن أحد البنسيونات الرخيصة، لم يبحث كثيرًا، إذ دلّه البعض على بنسيون "كلارا" بمنطقة الأزاريطة، فابتاع السميطة وبعضًا من الدُّقة وأخذ يتناولهما قبل أن يتجه إلى البنسيون، وهناك استقبله موظف الاستقبال ببشاشة، وكان من الواضح بساطة البنسيون الذي يقع في الطابق الثاني من البناية، به عدة غرفات متجاورة يجمعها استراحة واحدة لرواد البنسيون، والتي تتكون من قطعتين، الكبيرة تحوي منضدة لتناول الطعام ومجموعة من الكتب والمجلات العربية والأجنبية بأحد الجوانب، وأريكتين وستة مقاعد، والثانية أصغر منها قليلًا بها أربعة مقاعد ومنضدة صغيرة وبعض المجلات بين مقعدين بأحد الأركان، طلب منه أن يحجز له أقل غرفة سعرًا، فأخبره الرجل أن الليلة بقرشين، وحينها شعر شكري ببعض الاضطراب في معدته فهو لا يملك سوى خمسة وعشرين قرشًا مما يعني أنه لا يستطيع البقاء لنهاية المدة، هذا على فرض عدم تناوله أي شيء من الطعام، ولهذا طلب حجز الغرفة لمدة عشرة أيام، وأعطى الرجل عشرين قرشًا بينما ازداد اضطراب أمعائه.

أشار موظف البنسيون الذي يُدعى "توفيق" إلى شكري بغرفته، التي كانت متواضعة صغيرة فلا تحوي سوى فراش صغير وخزانة لحفظ الثياب ومنضدة صغيرة ومقعد، وبها نافذة تطل على شارع خلفي ضيق، وضع حقيقته على الفراش وأخرج منامته واستبدلها بالثياب التي ما زالت مبتلة بعض الشيء، استلقى على الفراش وغرق فعليًا في النوم، وبعد ثلاث ساعات كان اليوم في منتصفه تقريبًا وسمع أصواتًا خارج غرفته، فنظر عبر النافذ الضيقة المطلة على الشارع الخلفي، ثم نظر إلى السماء وقد اقتربت الشمس من المغيب وارتدى قميصًا وبنطالًا وخرج حاملًا منشفته، وبعد أن توضع التجأ إلى أحد الجوانب في الصالة الكبرى التي كانت خالية من الأشخاص وبعيدًا عن مرأى المرأة الأجنبية التي كنت تجلس بالصالة الصغيرة، بينما يراه رجل آخر فقط في نفس الصالة، رجل يطالع الجرائد ويضع قبعته البريطانية إلى جانبه، وعندما أنهى محمد صلاته اتجه إلى الصالة الصغرى، وهز رأسه محيياً الرجل والمرأة، وقبل أن يجلس على أحد المقاعد وقف يطالع الجرائد في سرعة، ثم التفت إلى دفتر رسومات إلى جانب الجرائد والذي كانت صفحته الأخيرة الظاهرة تتضمن رسمًا غريبًا لكائن يشبه الوحش وله عين واحدة، فأخذ يتفحص الرسم وقد ظهرت ملامح التعجب على وجهه، وحينها التفت إليه الرجل الأجنبي وقال بلغة عربية مفككة

قليلاً:

- هل يعجبك الرسم؟".

ابتسم شكري متسائلاً:

- هل تتحدث العربية؟".

أجابه الرجل متعجباً:

- أنا أتحدث معك الآن".

جلس شكري بالمقعد المجاور للرجل، وقد أشار إلى الرسم متسائلاً:

- "إنه وحش، أليس كذلك؟".

- إنه "السيكلوب"، أحد عمالقة الأساطير الإغريقية، لا يرى سوى بعين واحدة ولا يرى سوى

شيء واحد.

- إنه أسطورة ولم يكن له وجود، أليس كذلك؟

- إننا نرى مثله في الحياة...

قالها الرجل وقد التفت إلى المرأة الخمسينية وكأنه حرص على أن تسمعه، لكنها كانت منشغلة

بكوب الشاي الذي ترتشفه في هدوء وبالجراند التي تطالعها وهي تضع قبعتها التي أخفت نصف

وجهها ومعظم رأسها، وإن ظهر منها شعرها الأشقر الذي تنسدل ضفيرته على فستانها الوردية.

- كيف ذلك؟ آه آسف، لقد أخذنا الحديث ونسيت، أنا محمد شكري الكرداوي طالب علم

بإسطنبول.

ثم أخرج من جيبه تذكرة مروره التي تحمل صورته، ومد يديه ليصافحه، فصافحه الرجل وهو

يقول:

- وأنا "إدوارد فولت" صحفي بجريدة التايمز البريطانية ورسام.

وناوله بطاقته التعريفية.

- رسام؟

- نعم...

قالها وأشار إلى الدفتر الذي يتصفحه "شكري" وهو يقول:

- هذا الدفتر يخصني، أنا من قمت بالرسم".

شعر "شكري" بالحرج وأعاد الدفتر إلى الرجل قائلاً:

- أعتذر يا سيدي، لقد اعتقدت أنه يعود للبنسيون.

- لقد طلبت مني تغطية الأحداث المتلاحقة في الأونة الأخيرة نتيجة الحرب الكونية التي بدأت

تشتعل بسبب هذا الشاب الصربي المتطرف "برنسيب" الذي قتل ولي عهد النمسا .

- وهل تغطي الحرب وأنت هنا؟

- سأنتقل بعد قليل إلى بعض جبهات القتال، ولكني أتابع بعض الأحداث هنا، لا تنس أن "كتشنر" كان منذ أيام القنصل العام في مصر وقد صار وزيرًا للحرب لبريطانيا وقد جئت لأعطي هذا الحدث المهم وأعددت له رسمًا وهو يدعو البريطانيين للتطوع للقتال. ثم فتح إحدى الصفحات وأشار إلى كتشنر وهو يشير بإصبعه للأمام وكأنه يدعو الجميع للحرب.

- إذاً جميع هذه الرسومات لأحداث أو أشخاص يخوضون الحرب؟
- نعم.

- ولكن اسمح لي ما علاقة السيكلوب بالحرب؟
- إنها الإمبراطورية العثمانية.
- كيف ذلك؟

اعتدل الرجل في جلسته ثم اقتنص نظرة إلى المرأة وكأنه يتأكد أنها تسمعه مرة أخرى، لذا رفع صوته قليلاً وهو يقول:

- إن السيكلوب لا يرى يمينًا أو يسارًا وإنما يرى باتجاه واحد فقط، لا يملك أي خيار، يرى الخطر من اتجاه واحد ويتابعه، الدولة العثمانية هكذا لا تملك سوى خيار واحد دائمًا هو تاريخها المتمثل في الخلافة، لا ترى سوى هذا الطريق ولو كان فيه هلاكها، لا يملكون خيارات لشعوبهم وإنما مجرد أمانٍ فحسب".

اقتنص "شكري" نظرة إلى المرأة وقد احمرَّ وجهه خجلًا، وحاول أن ينفذ غبار الإساءة وهو يتساءل:

- لماذا تقول هكذا؟ ألم تحاربكم الدولة العثمانية بأحد جيوشها؟
- جيش من؟

- جيش عرابي.

أطلق الرجل ضحكة بصوتٍ عالٍ، فازدادت حمرة خجل "شكري".
- هذا الجيش بالتحديد دمرته فكرة الدين بالكلية.

- ماذا تقصد؟

- أنا دارس لتاريخكم أكثر منك، فاعلم إن كنت لا تعلم، عندما اشتعلت الثورة العرابية في مصر اشتعلت الثورة المهديّة في السودان الذي كان من أملاك مصر، ثم انتشرت الثورة في السودان وتعددت انتصاراتها على الجيش المصري، وكان أهمها معركة شيكان التي أبيد فيها الجيش المصري المرسل إلى السودان تمامًا، أتدري ماذا قيل عن هذا الجيش ولماذا؟

- يهمني أولاً معرفة من القائل؟

- إنه "ونستون تشرشل" وزير البحرية البريطانية، لقد قال إنه أسوأ جيش في التاريخ!

- لماذا؟

- إن هدف أي جيش في العالم هو الانتصار إلا هذا الجيش، ذهب لمحاربة جيش المهدي الذي يستولي على الأملاك المصرية في السودان فأراد الانهزام؛ لأنه اعتقد أنه يحارب الدين، وتحقق له ما أراد، فقد تم القضاء على الجيش بأكمله، سبعة آلاف جندي تقريباً لم يعد منهم جندي واحد، أنتم المسلمون.. أه أqvد أنتم العرب لا ترون إلا من ثقب واحد كما السيكلوب، أتدري الآن لماذا وسمت الإمبراطورية العثمانية المترنحة بالسيكلوب.

شعر "إدوارد" بلذة الانتصار فهض من مقعده مبتسماً وهو يقول:

- لنا لقاء آخر يا صديقي فأنا على موعد الآن، سأراك ثانيةً بالتأكيد.

قالها الرجل وكأنه يضرب له موعداً يخوض فيه جولة ثانية ينتصر فيها.

أجابه "شكري":

- بالتأكد فأنا أنتظر السفينة الذاهبة إلى إسطنبول بعد أسبوعين، إن الشيخ جاويش ومحمد فريد

في انتظاري هناك".

تفاجأ الرجل وتسمّر مكانه للحظة إذ بدا أنه يتفحص ملامح "شكري"، ثم انتبه كمن استفاق من

شروده وهو يقول في تودة:

- ولكن أسبوعين مدة طويلة في ظروف الحرب، لقد أعلنت روسيا الحرب على الدولة

العثمانية، وأعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا وتحالفت مع دول متعددة، ألا تعلم ما القادم؟".

شعر "شكري" بالاضطراب فتساءل:

- هل تخوض الدولة العثمانية الحرب ضد إنجلترا؟

فهز الرجل كتفيه وكأنه يستمتع بهذا العذاب والقلق اللذين شعر بهما "شكري"، وفور رحيل

"إدوارد فولت" اختطف "شكري" المجالات وحاول أن يتفحصها في سرعة وكأنه أراد اكتساب

خبرات السياسة من خلال تلك المطالعة السريعة بعدما ألقاه حديث "إدوارد".

انتبهت السيدة التي تجلس قربهما لاضطراب "شكري"، فتنحنت، كمن يستأذن في الحديث،

وهنا التفت إليها الرجل فنظرت إليه وتساءلت في لغة عربية واضحة:

- لقد أقلقك هذا الرجل، أليس كذلك؟".

كان "شكري" يعلم أنها تتحدث، لكنه لم يعلم أنها تتحدث العربية بهذا الوضوح بعينيها

الزرقاوين وشعرها الأشقر ووشاحها الأزرق حول عنقها وملامحها الأجنبية الواضحة.

فتساءل: وملامحه تسكنها معالم القلق:

- هل ستخوض الدولة العثمانية الحرب ضد بريطانيا؟".

- نعم أعتقد هذا، إنها تبحث عن الكبرياء التي افتقدتها منذ سنوات.

نظر إليها الرجل منهزماً وقد أصابه اليأس وهو يقول:

- إذاً لقد صدق الرجل.

- أي رجل؟!

- "إدوارد فول".

- تقصد "إدوارد فولت".

- وهل هناك فارق؟

- فارق كبير، عندكم "فول" يعني الكمال، بينما هو "فولت" بمعنى مخطئ، وهو مخطئ في كل شيء، أنا "ماليس" محررة صحفية بجريدة "الديلي ميل" من أيرلندا. لا تصدق كل ما قاله، لقد انهزمت مصر في معركة "شيكان" بالفعل، ولكن ذلك قد حدث بفعل وقصد من بريطانيا، لقد كان أسوأ جيش أرسل للحرب؛ لأن بريطانيا أرادت القضاء عليه، أرسلته إلى السودان؛ لأنه كان عبارة عن جيش عرابي الذي ثار ضدها فأرادت التخلص منه، أرادت الهزيمة للجيش المصري الذي وضعت على رأسه البريطاني مستر "هكس"، كي تنفي تهمة التآمر عن نفسها، أرادت خسارة الجيش المصري لتحل محل مصر في ملكيتها للسودان، كي تظهر بمظهر المدافع لكنها في الحقيقة من صنع الأزيمة، فمنذ ظهور محمد أحمد الملقب بالمهدي في جزيرة "أبا" في السودان ومصر كانت قادرة على القضاء عليها لكن بريطانيا منعتها، أجهضت كل محاولات القضاء عليها في المهدي، وتحجبت بالثورة العرابية ومحاولة القضاء عليها، كي لا ترسل جيشاً إلى السودان والثورة المهديّة في بدايتها، أرادت أن تستولي على السودان دون أن تطلق رصاصة واحدة، فأرسلت رفاق عرابي؛ لتحقيق هدفين: أولهما التخلص من رفاق عرابي، وثانيهما إعادة فتح السودان لتستولي على أملاك مصر المفقودة أمام الثورة المهديّة، وكان أحد المخططين لكل ذلك "كتشنر" الذي يتباهى به هذا "الفولت"، هي من استخدمت الدين للقضاء على أملاك مصر، كما تفعل الآن في الجزيرة العربية، لطالما كانت مصر هدفاً للجميع لا سيما عندما صارت خديوية من أربعين عامًا تقريباً.

- أنت تعلمين الكثير!

- إنه عملي.

قالتها بينما ترتسم ابتسامة على وجهها ثم استأذنت في الانصراف، ولكن عندما تحركت وابتعدت مسافة قدم واحد تراجعت واستدارت نصف استدارة وهي تقول:

- نسيت أن أخبرك شيئاً مهمّاً، الجميع يملك أكثر من خيار، الخيار بأن نسير للأمام أو التراجع،

حتى ولو كان سيكلوب".

أفزعت الرصاصات التي أطلقها الضابط البريطاني في ساحة فندق شبرد الجميع، وكان أقربهم زائري حديقة الأزبكية المواجهة للفندق، إذ بدأ بعضهم الركض، بينما تنتفض التجمعات ويهرب العاشقون في كل مكان، إلا سلاطين وقمر، فلم تُتِح لهما تلك الرصاصات وقتاً كي يتبادلا النظرات والهمسات حتى. لم تكن قمر مصرية ولكن سودانية بملامح ملائكية، شعرها كما الليل الطويل، بشرتها ليل بهيم تضيئه النجوم، عيناها تسطوان عليك دون روية، كأنها حورية تطويك جفونها.

لم تتح لهما الرصاصات وقتاً كي يتحدثا عن تطورات الأحداث الأخيرة، أو كي يخبرها صلاح برفض عم "خير" التدخل في أمرهما، بينما لم تخبره هي سوى أنها لم تصاحب والدها إلى المقابر في ذلك اليوم كالعادة لأنه طلب منها البقاء، وتساءلت بعدها عن موعد تقدمه لخطبتها مرة أخرى لكنه ربت على كتفها وأطال النظر في عينيها، وهي تربت على صدره بدورها وتلامس قلاذته التي تعلم مدى حبه لها؛ لأنها من رائحة والدته، فقد كان الجميع يركض حولهما إلا هُما، كانا كما الجبال في قلب العاصفة، حتى اقترب منهما أحد حراس الحديقة وطلب منهما الانصراف، فالحديقة ستغلق أبوابها خلال ساعة؛ لظروف أمنية، وحينها قبض سلاطين على يديها وهو يقطع لها وعداً بأن وظيفته ستغير الوضع تماماً، ثم ربت على كتفها وحاول أن يبقى قابضاً على يديها إلى آخر لحظة قبل أن يودعها على أبواب الحديقة المجاورة لنادي السلاح المواجه للأوبرا الخديوية وميدان الأوبرا، بينما انطلق إلى مصدر الرصاصات، إذ كان يريد اكتشاف حقيقة الأمر، فانطلق إلى باب الحديقة المجاور إلى حارة المهدي المواجهة لفندق شبرد، وهناك رأى الجنود يلتفون حول شخص يرتدي عباءة والشرفات ممثلة برتب عسكرية أجنبية وتوماس راسل المعروف للجميع يأمر الجنود باقتياد هذا الشيخ الملقى على الأرض إلى غرفة الأمن، وهنا حاول سلاطين أن يقترب أكثر وأكثر حتى تتضح له الرؤية واكتشف أنه "نمر" والد قمر، كاد يصيح على الرجل أو يتقدم في سرعة نحو الدرع البشري الذي ضربه الجنود حول الفندق حتى إن أحدهم سأله:

- ماذا عندك؟

فكاد يقر بمعرفته بالرجل لكنه أجاب بدهاء:

- عايز أتفرج".

صرفت القوات المتفرجين والمتلصقين، أما سلاطين فقد حاول أن يسترق النظر إلى مكان اقتياد "نمر"، حيث سأل أكثر من جندي عما حدث، فكانت الإجابة واحدة:

- لقد ألقى قبلة على الفندق، لكنها لم تنفجر، وهرب العرجي الذي كان يُقله.

وحينها أدرك أنه رفض اصطحاب قمر معه خوفاً عليها، وحتى لا يُعريضها للخطر، وهذا لا يعني سوى أنه خطط بالفعل للأمر.

جلس صلاح على أحد المقاهي بحارة المهدي، بحيث يكون فندق شبرد على مرمى بصره،

عسى أن يطَّلَع على أي تطور جديد، بينما تجمد الدم في عروقه، وأصابته الحيرة مما حدث وأخذ يفكر "ماذا يفعل؟ هل يخبر قمر؟ لكنها لن تتحمل، هل يعود لعم خير؟ لكنه رفض مساعدته اليوم، لا يبقى سوى والده، نعم فهو مثل شيخ الحارة". ارتشف رشفة من كوب الشاي وكأنه يبتلع الفكرة والرأي الذي انتهى إليه ويؤكد، لكنه كان بلا طعم، بل له مذاق رديء في فمه، فصاح على صبي المقهى طالبًا ملعقة من السكر، ثم أعاد التفكير في الأمر: "إنه الرجل الذي يعتقد أنه ما زال سلطانًا من السلاطين، إنه الرجل الذي يمنع زواجي بقمر، نعم لقد التحقْتُ بوظيفة جديدة، ولكن لم تكن كافية كما قال "خير". بعدها أصبح مذاق الشاي أفضل، لكنه استمر في التفكير بأنه يحتاج فقط بعض الوقت كي تستقر أموره ثم يعنتم بعض الأموال من عمله، وأخذ ينظر مليًا وقد استناب طعم الشاي في فمه، ثم ارتسمت ابتسامة باهتة على شفثيه وهو يهم بالانصراف، حيث جعل الفندق خلف ظهره وقرر أن يمنح نفسه بعض الوقت.

ألقي سلاطين نظرة أخيرة على الفندق عسى أن يظهر أي جديد مع "ود نمر"، ولكن كيف ذلك؟! لقد وقع في براثن الإنجليز العدو الأول للسودانيين، ولا ينسى صلاح أبدًا حديث والده عن أهالي حارة الصوفي وكيف أتى الإنجليز بهم إجبارًا، وهم أبناء وأحفاد سلاطين السودان؛ حتى لا يعودوا لحكم سلاطينهم مرة أخرى بعدما استولى الإنجليز من المصريين على أملاك السودان، فاستبدلوا بالعمامة السودانية الطربوش التركي، ثم جاءت بريطانيا لتستبدل بالطربوش التركي القبعة البريطانية، تلك القبعة التي تزدان بها شرفات فندق شبرد الآن وهي تحيي "توماس راسل" على أسر سوداني من أبناء سلاطين السودان، فتمتم قائلاً: "لك الله يا شيخ نمر".

خطا بضع خطوات مبتعدًا عن الفندق، ثم توقف والتفت بسرعة ليدقق النظر إليه مرة أخرى -وكانه يلقي النظرة الأخيرة على نمر قبل محوه من ذاكرته مؤقتًا- حتى علا وجهه ابتسامة اتسع مداها وهو يقول: "إنها هي"، وانطلق مهوولًا إلى ميدان العتبة، حيث المحال متنوعة والتجارة رائجة، بينما تتراص الحوانيت واحدًا تلو الآخر، وأمام كل حانوت وُضِعَت بضائع من أصناف شتى، فقد كان يعرف طريقه جيدًا، إلى حارة "علاء الدين" حيث حانوت "وادي الحرير" الذي استقبله ببشاشة مالك الحانوت "عم مسعود" وهو رجل خمسيني، ملامحه سودانية وإن كانت لغته خليطًا بين السودانية والمصرية، صافحه وسأله عن والده الشيخ أمين فأجابته صلاح بأنه بخير، ثم اتجه نحو الأرفف المثقلة بأثواب القماش، والحرير من جميع الألوان، بعضها يكسوه لون واحد ومعظمها مزركشة بألوان عدة، كانت تنقل إلى الروح نوعًا من البهجة والسرور، فأخذ يتفحصها حتى استقر اختياره على أحدها، وحينها أشار إلى أحد الأثواب وهو يقول:

- سأخذ هذا الثوب.

فاقترب مسعود ودقق النظر في نوع القماش وهو يقول:

- لقد أخطأت يا سلاطين، ليس هذا نوع القماش الذي يأخذه والدك، هذا ليس خامة جيدة

للجلايبب.

لكنه ابتسم وهو يقول:

- بل هذا بالضبط ما أحتاجه الآن، سأحمله الآن وأرسل إليك النقود غدًا".

هزَّ الرجل رأسه وهو يقول:

- لا بأس يا ولدي لا بأس، ولكن تذكر أني قلت لك إنها لا تصلح". حمل سلاطين الثوب وانطلق، وفي طريقه التقى زميله جورج البريطاني الذي يعمل معه بالوقائع -كان يحتسي بعض الخمر من بار الشيخ علي المجاور لحارة الصوفي- فتحدث إليه بكل ود، ثم ودَّعه وانطلق إلى حارة الصوفي حيث كل شيء فيها بالنكهة السودانية، ألقى السلام على ثلاثة من بيت التعايشي، شباب كانوا يجلسون على عنقريب قبالة منزلهم، حيَّاه أحدهم وكان "سالم"، وهزَّ آخر رأسه وهو يقول بتؤدة: "سلام..."، وكان هذا يُدعى "سليم"، ثم اكتفى الثالث بالنظر إليه وهو يداعب أصابع قدمه دون أن ينطق وكان اسمه "مسلم".

كانوا الوحيدين الذين يتسكعون بالطرقات ويرتدون الغريب من ألوان الجلايبب، ما زالوا يحتفظون بالجبة والعمة المرقعة بألوان مختلفة كما كان يرتدي خليفة المهدي في السودان جدهم "عبد الله التعايشي"، دائمًا ما تفوح رائحة البخور من منزلهم، رغم أن جدهم حكم السودان لتسع سنوات، بل وحاول احتلال مصر ليصبح خليفة مصر والسودان حتى هُزم في موقعة توشكى على يد كتشنر، إلا أن الناس تتذكرهم دائمًا بالشعوذة، فقد كان والده معروفًا عنه قراءته للنجوم، وورثها عنه ابنه عبد الله التعايشي الذي استطاع بدهائه أن يتقرب إلى محمد أحمد المهدي وأصبح خليفته الذي حكم السودان تسع سنوات لكنه ظل في نظر القوم مشعوذًا.

انطلق وهو يحمل الثوب إلى حانوت والده الذي استقبله متسائلًا:

- ماذا تحمل يا سلاطين؟

لكنه لم ينتظر إجابة بل دقق النظر في الثوب وتحسس به بيديه ثم قال:

- ليس هذا ما نبتاعه يا ولدي.

فابتسم الأخير قائلاً:

- إنه لي يا والدي.

وقبل أن يكمل حديثه دلف إلى حانوت "إدريس بن حسين بن السلطان" محمد الفضل "" أحد سلاطين السودان، والذي امتلك حانوتًا كبيرًا بالحارة للعطارة والعطور، وحاول أن ينخرط مع المصريين وطبائعهم.

- سمعت عن القنبلة يا أمين؟

أمين متسائلًا وقد ظهرت علامات الدهشة عليه:

- "قنبلة إيه يا شيخ؟".

نظر الرجل إلى سلاطين محيياً:

- "عوافي يا سلاطين، بيقولوا زول كان داير يفجر شبرد ورمى قنبلة، مسمعتش حاجة يا سلاطين؟".

سلاطين وقد ظهرت عليه علامات الارتباك:

- "أبدأ أبدأ يا شيخنا، أنا خلصت شغلي وبعدها رحلت للحاج مسعود في العتبة عشان توب القماش".

- يلعن أبوهم الإنجليز هيجنم الناس، بهدلونا في السودان وهنا كمان!

أشار أمين إلى الشيخ بالجلوس، وقبل أن يجلس إلى جواره على العنقريب سمع صوت ابنه "شيلفوت" وهو يصرخ في "حسان" أحد أبناء منزل الزبير، فخرج الرجل مسرعاً، بينما هز أمين رأسه وهو يقول:

- "أتري ماذا فعل الإنجليز؟ احتلوا مصر وسرقوا السودان ووضعوا العود جنب النار في الحارة، "شيلفوت" ده واخذ طبع جده "شيلفوت" ومش هيسيب أهل بيت الزبير اللي قتلوا جدهم "ود محمد الفضل" زمان، الإنجليز عايزين يلبسوا الناس كلها طاقيتهم، نهايته، إيه حكاية توب القماش ده؟".

ابتسم سلاطين وهو يقول:

- "زي ما قلت يا والدي الإنجليز عايزين يلبسوا الناس طاقيتهم، من يومين بعنوا لنا في الوقائع المصرية ثلاثة قرارات، هننشر واحد منهم اليومين الجايين، مصر يا والدي يا هتبقى سلطنة أو تخضع للحماية أو هتبقى ولاية بريطانية زي الهند".

تساءل أمين:

- "تقصد إيه؟".

- لو بقينا جزء من المملكة البريطانية هنبقى إنجليز يا ولدي.

لم يتمالك الرجل نفسه من الضحك حتى اهتزت كتفاه واستند إلى العنقريب وهو يقول:

- "يعني هنلبس بدلة وبرنيطة!".

ابتسم سلاطين وهو يقول:

- "ها قد علمت الآن لماذا أحضرت القماش؟".

تساءل أمين وقد ضربت وجهه علامات التعجب:

- "ماذا تقصد؟".

- لو طلع قرار تبعية مصر لبريطانيا كلنا هنلبس زي ما بتقول يا والدي برانيط إنجليزي، عشان

كده هعمل برانيط إنجليزي يشتريها المصريون.

قالها وربط القول بالعمل وانكب على صنع القبعات.

- هتضيع فلوسك على الفاضي يا بني.

- مش هيحصل.

انكب سلاطين على صنع القبعات طوال الليل بينما كان كل فترة يسترق النظر إلى شرفة قمر، فقد شعر بخيانتها، لكن هذا هو الطريق لبلوغها، فقد كان يراها خلف النافذة تقتنص نظرة إلى الحارة بحثًا عن والدها.

انتصف اليوم التالي وكان سلاطين مستمرًا في صنع القبعات إلى جانب والده حتى دلفت قمر إلى الحانوت، وهي ترتدي "ملاية لف" سوداء ويشمك لا يظهر منه سوى عينيها اللتين انهمرتا في البكاء، نهض سلاطين وأجلسها على العنقريب إلى جانب والده الذي ربت عليها وقال:

- "ماذا بك يا ابنتي؟".

- والدي يا عم أمين مجاش من إمبراح.

اصطنع سلاطين المفاجأة وتساءل:

- "إزاي يا قمر؟!".

- راح إمبراح يزور المقابر بتاعت جدي في الإمام الشافعي ومجاش من ساعتها.

- إن شاء الله خير يا بنتي، قوم يا سلاطين يا ابني بسرعة روح اسأل في المقابر نتأكد الأول إنه راح هناك.

- أنا جاية معاك.

انطلقا معًا إلى المقابر، وقمر تواصل البكاء وسلاطين غلبه شيطان الحب وأنانيته واصطنع الحزن وهو يحاول تهدئتها، ثم بلغا المقابر، فصاحت قمر على "مرسي" التربي لكنه لم يجيبها، لذا انطلقت نحو الحوش الذي يقيم فيه صانع الأعمال الشيخ "الكرداوي"، وأخذت تطرق على باب الحوش دون جدوى، فتساءل سلاطين:

- ما هذا يا قمر؟

لتجيبه:

- إنه مكان شيخ مبروك يصنع الأحبة استعان به والدي من قبل".

في تلك اللحظة مر إلى جوارهما شخص، فأشار إليه متسائلًا:

- هل هو ذلك الرجل؟".

فأجابت:

- لا، الشيخ الكرداوي أبيض وعينه خضراوان.

وهنا شعر سلاطين ببعض الجفاف في حلقه دون سبب فابتلع لعابه بصعوبة وكأنه يبتلع هذا الوصف للشيخ الكرداوي الذي اعتبره مهينًا له، حتى ظهرت "عفيفة" صاحبة القوام الممشوق والشعر الأسود والثوب الأحمر مفتوح الجانبين الذي لا يتلاءم مع المكان أبدًا، فانطلقت نحوها قمر

وسألتها عن والدها، لتستقبلها عفيفة ببرود شديد، وهي تقول:

- أهلاً يا وش الخير.

ثم نظرت إلى سلاطين:

- وإيه ده كمان يا ستي؟".

تجاهلت قمر سؤالها وسألتها مباشرة:

- والدي مرجعش البيت من إمبراح، هو مجاش المقابر إمبراح؟".

- جه ومشى بعد العصر ده حتى العربجي... أأ والله ما نعرف حاجة تانية يا ست قمر.

فأجهشت الأخيرة في البكاء، بينما انشغل سلاطين في تفحص ملامح "عفيفة".

عادت قمر إلى منزلها، وأبلغ سلاطين والده بما حدث، وبعدها اختفى، فقد كان في طريقه للمقابر مرة أخرى، حيث شعر بأمر تخفيه ملامح تلك المرأة اللعوب، لذا عاد لسمع سموم "عفيفة"، تلك المرأة التي أوحى لها شيطانها بالبحث عن محبوبها، هذا الشاب الأبيض صاحب العينين الخضراوين "محمد شكري" بعدما اختفى، حيث أرادت أن يتوارى فقط عن الأنظار بينما تعرف مكانه لكن شكري اختفى عن نظرها وأرادت العثور عليه، فلم تجد سوى سلاطين كوسيلة للبحث عنه، والأداة تكون غريمته قمر التي يحبها شكري، وهنا قررت أن تتلاعب بسلاطين كي يبحث لها عنه، حيث أوغرت صدره بالغيرة ولم تدرك أن تلك الغيرة قد تدفعه للقضاء على شكري، لكن حديث "عفيفة" قد لقي مردوداً عند سلاطين بالفعل؛ لأن "خير" قالها له من قبل:

- "نمر" لا يقبل زوجاً لابنته إلا سلطاناً أو ساحراً كهذا الشيخ".

مرت خمسة أيام على اختفاء شيخ "نمر" ولا أحد يعلم عنه شيئاً، لقد كانت حارة الصوفي قطعة من السودان لكن جميعها منازل تحمل عداوة لبعضها بعضاً، منهم من قتل الآخر وحاربه، ومنهم من خلع الآخر من عروش الحكم بالسودان، ولهذا أرادت بريطانيا جمعهم تحت مراقبتها بمصر، لذا لم يكونوا قط عضداً لبعضهم بعضاً ولم يجدوا من يوحدهم، فالوحيد الذي جمع أطياً متعددة من السودان كان محمد أحمد الملقب بـ "المهدي المنتظر"، وبعدما قُتل بالسبب ما أشيع عنه، افترقوا وتنازعوا لذا لم يكن لأبنائه أي أثر في تلك الحارة.

كان على الشيخ "أمين" أن يتحرك ليبحث عن الرجل، لذا استيقظ كعادته مبكراً، وتوضأ وصلى، ثم حاول إيقاظ ابنه سلاطين الذي انتهى من صنع القبعات منذ أربعة أيام تقريباً بل وبدأ ببيعها وارتدائها بدلاً من الطربوش، لكنه صدم بإعلان مصر سلطنةً وتولية حسين باشا كامل سلطاناً عليها، لم يبأس وحاول الاستفادة من القبعات بشتى الطرق فأخذ في إهداء القبعة للجميع، رئيسه في العمل، وزملائه، حتى إن أمين والده قد نبهه أن ذلك قد يعكس انتماءه وولاءه لبريطانيا، لكنه لم ينصت له؛ إذ كان يشعر بأن هناك شيئاً قد تغير فيه، ولكن كيف له أن يعلم أن عفيفة هي السبب وأنها من وسوس في عقله.

قبل أن يخرج أمين توقف أمام المرأة التي تتعلق بين ثنايا إطارها ورقة كوتشينة مقطوع نصفها، ثم التقط تلك الورقة القديمة ونظر إلى رسمة الولد غير المكتملة عليها، ثم بدأت تتراءى له مشاهد لا يستطيع أن يحوها من عقله، وأخذ يتساءل في قرارة نفسه: كيف قضى العديد من سنوات عمره وشبابه جندياً بالقوات المصرية في السودان، خاصةً بعد الهزائم المتتالية لتلك القوات على يد قوات محمد أحمد المهدي وخليفته "عبد الله التعايشي" الذي يقطن أحفاده بالحارة الآن، فقد تم سحب تلك القوات إلى مصر، وعلى الحدود قضت والدة سلاطين نحبها بينما كان طفلاً رضيعاً، وفور بلوغ الفرقة المصرية التي ينتمي إليها أمين جنوب شرق مصر في منطقة توشكى حاول "عبد الله التعايشي" احتلال مصر عن طريق قائد جيوشه وأحد أمراء الثورة المهديّة "عبد الرحمن النجومي"، بجيش مؤلف من ستة آلاف جندي، استطاع "كتشنر" هزيمة النجومي، وقتل جميع قواته، وكان منهم ابن النجومي الذي لم يتجاوز السنوات الخمس، ولم يتبق من فرقة النجومي سوى ابنه الأصغر الذي لم يتجاوز العامين، وتم العثور عليه إلى جانب ناقة والده التي قُتل عليها، فتولى رعايته بالصحراء عدة أشهر مع سلاطين، وعندما عادوا إلى مصر تولى رعاية الطفل قصر الخديوي توفيق ثم تولى رعايته بعد وفاة الخديوي توفيق الخديوي المخلوع عباس حلمي الثاني حتى صار ضابطاً كبيراً وأحد حراس السلطان الحالي "حسين كامل"، لم ينس الرجل الذي صار ضابطاً كبيراً هذا المعروف، فتدخل لتعيين سلاطين بالوقائع المصرية، لا يتبقى لأمين سوى هذا الرجل "عبد الله النجومي" الذي استطاع أن يتحرك من خانة العدو الغازي لمصر إلى خانة حامي

سلطان مصر!

كان يعلم أن أفضل وقت يستطيع فيه أن يرى هذا الضابط هو الصباح الباكر قبل استيقاظ السلطان، لقد عمل أمين منذ سنين بعد عودته من السودان بقصر الخديوي وشهد بعينه تولية عباس حلمي الثاني وكيف تعامل معه "كتشنر" باستعلاء شديد حتى إنه استقبله في القصر بالانشيد البريطاني بدلاً من المصري ليربك الرجل الذي كان ما زال شاباً صغيراً .
توجه إلى قصر عابدين وتحدث إلى الحراس الذين طلبوا منه الابتعاد قدر مائة متر عن القصر إلى حين إبلاغ الضابط عبد الله النجومي، وبالفعل جاء الضباط وانتحى ركنًا من البوابة.

- عذراً يا ولدي.

- أهلاً بك يا شيخ أمين.

- أعلم أن هذا ليس الوقت أو المكان المناسب يا ولدي.

ابتسم الرجل وهو يقول:

- "لا تخش شيئاً يا شيخنا، فالسلطان لا يستيقظ قبل الظهر، ما الأمر؟".

- إنه "ود نمر"، لقد اختفى منذ خمسة أيام ولا نعلم عنه شيئاً، ذهب إلى مقابر الإمام الشافعي

ولم يعد.

- اطمئن، سأبحث عنه بطريقتي.

ثم ربت على كتف الشيخ أمين مطمئناً.

انصرف الشيخ أمين ولم يبخل عبد الله النجومي بالبحث، وإنما أجرى اتصالاته بنظارة الداخلية وترك أوصاف "ود نمر"، وبعد الظهر جاءه الرد بالفعل:

- إنه في حوزة "توماس راسل"، فلقد حاول تفجير شبرد". وحينها انقبض قلب عبد الله النجومي فهو يعلم أن توماس راسل رجل طموح يسعى بكل طاقته لتولي حكمدارية القاهرة ولن يترك تلك الواقعة تمر هكذا، أضف إلى ذلك أن المندوب البريطاني "كتشنر" الذي صار وزيراً للحرب منذ أيام يضر الكثير للسودانيين الذين تسببوا في إصابته منذ سنين في أثناء حربه على المهدي في السودان، إصابةً يعاني منها حتى اليوم، وفندق شبرد صار مقرًا لقوات التحالف في شمال إفريقيا في تلك الحرب التي صارت كونية.

كانت كل المؤشرات ضد الرجل، لكنه كان يعلم أنه لا سبيل لـ "ود نمر" سوى تدخله شخصياً، وبالفعل انطلق الرجل إلى مقر حكمدارية القاهرة طالباً مقابلة توماس راسل، هذا الرجل المعروف بذكائه وخبرته في مصر التي امتدت منذ عام ١٩٠٢ رغم أن عمره لا يتجاوز الخامسة والثلاثين، حمل وجهه كل الملامح البريطانية من شعر أشقر وعينين زرقاوين إلا أنه يتحدث العربية بطلاقة، والذي استقبل النجومي مبتسماً، وفي ذات اللحظة نهض باهتمام ليحمل كلبته "بيكي" ويُقْبَلُها ثم نظر إليها ملياً وقد ظهرت عليه بعض ملامح الغضب فضغط زرّاً ليأتي له جندي مصري، صرخ

في وجهه وهو يقول:

- "ماذا فعلتم بها؟".

محتضناً كلبته برفق، ليجيبه الجندي وقد أصابه الاضطراب:

- "لا شيء سيدي القائد".

- لا تكذب، إنها تتحرك ببطء وعيناها نصف مغلقتين.

- لقد قدمنا لها الطعام والشراب.

- الأمر لا يتعلق بالطعام والشراب أيها الجاهل، هي لم تَرَ العشب، تريد أن تشعر بالحرية،

خذاها في نزهة إلى الحدائق فهي مخلوق يسعى للحرية.

- أمرك سيدي.

انتبه بعدها إلى عبد الله النجومي فابتسم له وكأنه يأذن له في الحديث، فبادلته عبد الله الابتسامة

وهو يقول:

- "آسف على الإزعاج سيدي، ولكن لي قريب اسمه "ود نمر" كنت أريد أن أعرف موقفه

بالضبط، هو من شيوخ السودان ورجل طاعن في السن".

اصطنع راسل التفكير للحظة ثم ابتسم وهو يقول:

- "لقد تيقننا من ذلك".

حرك النجومي رأسه في محاولة للفهم وهو يقول:

- "مم؟".

- لقد أراد هذا الرجل أن يسحرنا بقطعة القماش التي ألقاها على الفندق، أراد كما تقولون أنتم أن

يسخطنا، ولكن اطمئن سنفرج عنه.

نهض عبد الله النجومي وأدى التحية وانطلق، بينما ضغط راسل على الفور أزرار التليفون

متحدثاً إلى ضابط إنجليزي بدائرة الحكمدارية وهو يقول:

- "الشيخ السوداني...".

ليجيبه الضابط:

- "نعم سيدي، لقد أصدرت أوامرك بالإفراج عنه اليوم".

ثم تباطأ الضابط في الحديث وهو يقول:

- "ولكن لقد تغير الأمر يا سيدي".

- ماذا تقصد؟

- لقد صدر الأمر بنقل الملف إلى إدارة المخابرات وتولاه مستر "رونالد ستورس".

أغلق راسل الهاتف وهو في حالة ضيق، ثم طرق بأصابعه على سطح المكتب قبل أن يدير

قرص الهاتف مرة أخرى ليطلب من عامل التحويلة إجراء مكالمة للطابق الذي يعلوه حيث مكتب

"رونالد ستورس"، استغرق الأمر عشر دقائق علم خلالها ستورس -مدير مكتب المخابرات البريطانية في مصر والذراع اليمنى لكتشنر المندوب السامي البريطاني في مصر الذي صار وزير الحربية البريطاني- أنه بانتظار توماس راسل، فالتقط الهاتف وهو يحاول رسم ابتسامة زائفة:

- أهلاً صديقي العزيز "راسل".

- مستر ستورس.

- خيرًا.

- لقد أتمنا التحقيق مع الرجل السوداني وقد أصدرت أمرًا بالإفراج عنه، ولكن...

- نعم نعم صديقي العزيز، لقد ألغينا هذا الأمر لأسباب تتعلق بأمور سياسية بحتة، لقد اطلعت

على تحقيقاتك صديقي العزيز، لقد كانت رائعة.

- أشكرك، تحياتي مستر ستورس.

- تحياتي مستر راسل.

أغلق ستورس الهاتف وقد ارتسمت ابتسامة غامضة وهو يتمتم قائلاً:

- "ليس وقتك أيها المغفل، لا يمكن أن ينسب إلى هذا النجمي الفضل في إخراجه، لقد كلفنا

الأمر الكثير حتى يصل هؤلاء القوم لما هم فيه، لا يمكن أن ينسب أي فضل إلى أحدهم على

الآخر".

ثم رفع يده من على الهاتف وتطلع ببصره إلى الضيف الذي دلف إلى مكتبه فابتسم وهو يشير

له بالجلوس قائلاً:

- "أهلاً إدوارد فولت".

أبلغ النجمي أحد جنوده ليطمئن الشيخ أمين على "ود نمر"، والذي طمأن "قمر" ابنته بدوره، وأراح فؤاده، ثم مرت عدة ليالٍ لم يحدث خلالها أي شيء، ولم يظهر "نمر"، وفي صباح أحد الأيام، نهض الشيخ أمين وأدى صلاته فلم يجد سلاطين في فراشه وتذكر أنه لم يره في المساء أيضاً، فأصابته الدهشة؛ لأن ذلك الصباح الثاني الذي يختفي فيه سلاطين مبكراً وأضحى سلوكه غريباً، لكن الرجل انطلق إلى حانوته وعندما همّ بفتح أبوابه سمع نباحاً مستمراً للكلاب في نهاية الحارة قبالة ميدان إبراهيم باشا، فحاول نهرهم من بعيد، لكن الكلاب لم تتوقف، لذا تقدم أمين بضع خطوات نحوها، وبدأ يدقق فيما تنبح عليه، حتى اتسعت عيناه وضربته الصاعقة، إنهم ثلاث جنث، إحداها أجنبي يبدو أنه جندي بريطاني، والأخيرتان للشيخ "إدريس بن حسين" من بيت الفضل، والثاني "حسان" من بيت الزبير، لكن ما أصابه باضطراب أكثر وأكثر، تلك القبعات التي كانوا يرتدونها، القبعات التي يصنعها سلاطين.

لم تمر سوى ثلاثة أيام على مجيء "محمد شكري" إلى بنسيون "كلارا" حتى أعلنت بريطانيا الحرب على تركيا، فانتهت أحلام اللقاء بالشيخ جاويش ومحمد فريد، وانتهى حلم الرحيل إلى تركيا، وفي غضون يومين صار الانتماء إلى أي جماعة فكرية أو التعاطف مع تركيا في حد ذاته جريمة، لقد أغلقت الأبواب المباشرة للرحيل ولم يتبق سوى الأبواب الخلفية، حيث أدرك شكري أن الطريق الوحيد هو الاتجاه نحو الحدود المصرية- الليبية؛ فإيطاليا مسيطرة على ليبيا ولم تعلن موقفها من الحرب بعد، وقبل أن تنفذ نقوده، قرر أن يبادر للمغامرة، فحمل حقيبته وانطلق بالفعل إلى الحدود، وفي نقطة التفتيش التي سيطر عليها البريطانيون وجدها تمتلئ بالوافدين الذين أثاروا الريبة من كثرتهم، فسأله الضابط الإنجليزي عن سبب رحيله إلى ليبيا ليجيبه:

- العمل.

وعندما سأله عن مهنته أجابه:

- حلاق.

كان السؤال التالي للضابط منطقيًا:

- أين حقيبة أدواتك؟

وحينها ارتبك شكري، وظهر توتره، ليبتسم الضابط بملامح غمرها الانتصار حين شعر أنه أوقع بأحدهم، ثم أشار الضابط إلى الرجل الذي يلي شكري في طابور المرور وطلب من شكري أن يخلق للرجل شعر رأسه، ارتبك الرجلان وحاول الرجل المجهول أن يعترض، لكن الضابط ابتسم له قائلاً:

- ألا تريد أن تمر؟

لذا اعتبر الرجل أن هذا وعد منه بالمرور، فصاح الضابط على الحشود كي يأتيه أحدهم بمقص، وبالفعل لبت طلبه إحدى النساء، بينما لم تمض سوى بضع ثوانٍ حتى كان الرجل المسكين يصرخ مما أصاب رأسه، لقد صنع له شكري طرفًا وميادين في شعره، فأشار الضابط إلى أحد الجنود كي يلقي القبض على شكري ويصطحبه إلى غرفته ليُستجوب، وحينها أدرك شكري أنه هالك لا محالة، لقد أوقع به هذا الضابط الداهية، فأخذ يضغط على أوتار عقله ليستفز قدراته على التفكير بأقصى سرعة، وبالفعل أدرك أن له فرصة واحدة تتمثل في "إدوارد فولت"، لذا بادر شكري إلى المطالبة بإجراء اتصال تليفوني، تعجب الضابط من تلك الجرأة وهو يتساءل مستهزئًا:

- بمن ستنتصل؟

- جريدة التايمز البريطانية.

- هل تستهزئ بي؟

- كلا يا سيدي، أريد أن أتحدث إلى "إدوارد فولت" الصحفي هناك.

- ومن أدراك بإدوارد فولت؟

- إنه صديقي.

- سنرى...

قالها الضباط باقتضاب وهو يدير قرص الهاتف القابع جواره طالبًا تحويل خط التليفون إلى مقر جريدة التايمز البريطانية التي أصبح لها مقر دائم بالقاهرة بعد انتقال قيادة قوات الحلفاء في شمال إفريقيا إلى فندق شبرد والكونتيننتال.

مضت بضع دقائق كانت نظرات الضابط الإنجليزي إلى شكري تعكس انتظاره العاجل لما ستسفر عنه هذه المكالمة، وبالفعل لم تنقض سوى نصف ساعة مرت على شكري كأنها نصف ساعة في الجحيم، بينما يتساءل داخل عقله: "ماذا سيكون رد فعل إدوارد؟ لقد ترك الفندق دون أن يودع أحدًا تقريبًا، هل سيلتفت عنه أم سيساعده؟"، إلى أن جاءه صوت إدوارد على الطرف الآخر من المكالمة، ليحييه الضابط بالفعل ويخبره بأمر محمد شكري، فطلب إدوارد أن يتحدث إليه، وبالفعل عندما قدم الضابط سماعة التليفون لشكري اختطفها الأخير في لهفة كأنه يبحث عن مخرج للنجاة.

- نعم مستر إدوارد أنا بخير، لقد حاولت أن أعبّر الحدود متخفيًا كي أنقل بعض الأحداث إلى جريدتك...

وحينها ابتسم فولت على الجانب الآخر من المكالمة، لقد كان شكري يمهد طريق العبور والمخرج من تلك الأزمة، وبطريقة ما أراد من فولت أن يتبنّى هذا الحل، فلم يجبه فولت الذي كان جل همه أن يعرف لماذا أراد شكري الذهاب إلى ليبيا؟ لذا كرر سؤاله ولم ينتظر إجابة، بل أجاب هو قائلاً:

- لقد أردت أن تذهب إلى محمد فريد، أليس كذلك؟ هل ما زالت الرسالة بحوزتك؟

وحينها أجاب شكري بكلمة واحدة:

- نعم.

- هل ستعود إلى الفندق؟ سأكون هناك مساء الغد.

- إن أردت مستر إدوارد سأعود على الفور.

ابتسم فولت وهو يقول له:

- إذا أعطني الضابط.

تناول الضابط السماعة وفي ثوانٍ تغيرت ملامحه وعكست ابتسامته اغتباطًا عندما طلب منه فولت إرسال صورة فوتوغرافية إليه أو رسم كي ينشره ضمن الأخبار التي تُنشر عن الجبهات المختلفة للقوات البريطانية، كما كرر على مسامعه نفس القصة المضللة التي قالها شكري حتى يسمح له بالذهاب، وبعد دقائق بالفعل كان شكري على متن إحدى عربات اللوري التي تصطحب

العائدين من الحدود المصرية الليبية إلى الإسكندرية، وبعد بضع ساعات، بلغ البنسيون واستقبله "توفيق" بترحاب شديد وهو يقول:

- أين كنت منذ أمس، اعتقدت أنك تركت البنسيون؟"، ابتسم شكري ولم يقوَ على الرد، إذ كان في غاية الإرهاق، فتوجه إلى غرفته وحاول أن يغط في النوم ولكن لا فائدة، شعور بالتعب والإرهاق ضرب أركانه، جسده يئن من مشقة السفر وعقله مشتمت، جلس على الفراش وفتح النافذة حيث أراد أن يستنشق بعض الهواء، بينما تساءل عقله: "ماذا أراد فولت بقوله: هل ما زالت الرسالة بحوزتك؟ إن محمد فريد زعيم الحزب الوطني والشيخ جاويش من المقربين للدولة العثمانية ويدعمانها، وها قد أعلنت بريطانيا الحرب عليها، بريطانيا التي ينتمي إليها فولت، لا جدال أنه يريد الرسالة"، ثم نهض شكري وبحث في حقيبته عن الرسالة، وارتبك عندما لم يجدها مباشرة، فنثر الملابس يسارًا ويمينًا وازدادت دقات قلبه، حتى تحسّستها يدها، فقبض عليها وقد بدأت دقات قلبه تهدأ، ثم وضعها أمام الضوء رغبةً في تفحصها ومعرفة ما بها، لكنه لم يقوَ؛ لأنها أمانة، لذا حاول أن يستسلم للنوم ولكن لا جدوى، حتى سمع صوت طرقات على غرفته وإذا به توفيق، فأذن له بالدخول وهو على حاله جالسًا على الفراش.

- أستاذ شكري حضرتك مكمل معنا بكرة؟

- إن شاء الله.

- طيب هستأذن حضرتك في الأجرة.

- ثانية واحدة.

قلّب شكري النظر في حقيبته، ولمح محفظته الفارغة وأدرك وقتها كارثة نفاذ النقود، فارتبك واصطنع فقدان المحفظة.

- دؤر براحة يا أستاذ شكري، أنا هسيب حضرتك على مهلك، كده كده لسه يومك لحد بكرة الساعة ١٢ الظهر، على مهلك.

قالها الرجل وانطلق إلى خارج الغرفة، وهو يدرك أن محفظة النقود موجودة بالحقيبة، لقد رآها، كما رأى مثل هذه المواقف من قبل، لكن هذا المسكين نفذت نقوده، وأخذ يفكر لماذا لا يستغل قدراته التي رآها بأم عينه من قبل! حين كان يضع بطارية على منضدة الاستقبال وأخذ الضوء يتردد، يخبو، ويضيء، حتى جاء شكري ونصحه بإبعاد البطارية عن قابس الكهرباء، فاستقر النور دون أن يفعل أي شيء.

ولكن في تمام الساعة الحادية عشرة والنصف من صباح اليوم التالي كان شكري أمام توفيق يودعه.

- إلى أين أستاذ شكري؟

فنظر إليه شكري في حزن وبصوت يتخلله الإرهاق:

- صدقني لا أعرف.

رقاً حال الرجل على "توفيق" فقال له:

- انتظر لحظة واحدة...

ثم انكب على طاولته، وكتب بضع كلمات على ورقة، ثم طواها ووضعها داخل مظروف وأغلقه، ثم رفع رأسه تجاه شكري وهو يقول بكل هدوء:

- تفضل.

- إيه ده؟

- ده اللي أقدر عليه، خد الجواب وإديه لأخويا مرسي، لو بتدور على شغل أخويا في مصر ممكن يساعدك على الأقل ممكن يوفر لك سكن مجاني، اسأل عليه في مقابر الإمام الشافعي وإيدله الجواب.

قبض شكري على الخطاب وهو ينظر إلى توفيق نظرة امتنان، ثم صافحه وانطلق إلى القطار، بينما لم يكن يخطط لأي شيء، لقد ساقته الأقدار وأبعدته إلى طريق العزلة والوحدة، فلا رجوع للزقازيق، ووداعاً للإسكندرية، وبينما يجهل ماذا يحمل له الطريق جلس بالقطار وهو ينظر إلى خطاب توفيق وقد ارتسمت على شفثيه ابتسامة باهتة، فقد تذكر خطاب محمد فريد الذي منعه الأقدار من أن يسلمه إلى إدوارد فولت، والآن ورقة داخل خطاب لا يعلم مضمونها لشخص لا يعلم هويته تتحكم في مصيره، حدث نفسه متسائلاً: "ماذا يمكن أن يحدث أسوأ من ذلك؟!".

بلغ القطار العاصمة، فأصبح شكري الآن داخل المحروسة، حيث العديد من الأشخاص، أفندية، وفلاحون، وصعاليك، والسيارات في ميدان محطة مصر، فأوقف أحد الأشخاص وتساءل عن مقابر الشافعي، ثم انطلق إليها تاركًا الطريق يحدد مصيره والخطاب المجهول يرسمه.

بلغ المقابر وعند إحدى بواباتها سأل عن مرسي فأجابه أحد الأشخاص مؤكداً:

- مرسي التربي؟

ليقول شكري:

- مرسي أخو توفيق.

- أيوه هو مرسي التربي، امشي مع السور ده ولف معاه، بعد شوية هتلاقي بوابة تانية زي دي، تلاقيه هناك.

ثلاث دقائق مرت حتى صار شكري أمام الشخص المجهول الذي سيحدد مصيره على الأقل في الأيام القادمة، حيث أشار إليه أحد الأشخاص وهو يقول:

- شايف اللمة اللي قدام دي، هو اللي لابس الجلابية البيضاء وعليها السديري.

اقترب شكري من الجمع الذي كان عبارة عن امرأة وثلاثة رجال يتوسطهم مرسي صاحب الجلابية البيضاء المتسخة بالغبار وفوقها الصديري الأسود، فهو رجل أربعيني، قصير القامة،

شاحب الوجه، شعره مجعد، بعينه حَوْل يجعلك غير مدرك إلى أين ينظر بالتحديد، ولهذا يُشعرك
بربكة غير مقصودة.

اقترب شكري من الجماعة حتى صار على مسافة قريبة منهم، ثم بدأ بتهدئة خطوته حتى يتبين
الأمر، إنه حديث يقترب من الشجار بين رجلين يدّعي كلُّ منهما ملكيته للمقبرة التي يقفان على
رأسها، ومن الواضح من بنائها المهمل أنها قديمة، لكن شاهد المقبرة يُظهر حدائته، وكان على
مرسي أن يقرر من هو مالِكها؛ فهو حارس المقابر ويُفترض علمه بملاكها، واحتفاظه بسجل
خاص بأسمائهم، لكن من الواضح أن الرجل قد فقد هذا السجل، فاحتار بينهما، كان أحد الرجلين
يُظهر انعدام حيلته فأخذ يكرر ويقسم إن المقبرة تخص جده منذ أكثر من خمسين عامًا، أما الثاني
وبطريقة واضحة أظهرت المرأة تأييدها له، فكانت تهز رأسها بجديّة واضحة وهي تشير إلى
المقبرة وتقول:

- ده واضح إنه كان شيخ وليه كرامات، أهو مكتوب على الشاهد إنه كان بيزور الأضرحة
والجوامع الخديوية.

فأجاب الرجل صاحب الشاهد:

- أيوه والله يا حاجة "عيفة" من سبعين سنة وهو بيزور جوامع الخديوي ربنا يطول عمره.
هنا لم يتمالك شكري نفسه كعادته فاقترب وأصبح جزءًا من دائرة الحوار، وهو يشير إلى
الرجل عديم الحيلة قائلاً:

- الراجل ده على حق.

فتار الرجل صاحب الشاهد:

- أنت مين؟

بينما تبسم الرجل الآخر وقال:

- الله يفتح عليك، أه ظهر الحق.

وهنا اعترضت السيدة وقالت:

- مين إنت يا أخينا؟

وكرر مرسي جملتها:

- إنت مين يا أفندي؟".

فأجابهم:

- أنا "محمد شكري الكرداوي" صاحب أخوك توفيق وهو باعت لك ده.

قالها ثم أخرج الخطاب من حقيبته وأعطاه إلى مرسي، فأكمل الرجل ثورته وهو يقول:

- إيه البلاوي اللي بتتحدف علينا دي!".

نظر إليه شكري شزراً وهو يشير إلى المقبرة ويقول:

- حرام عليك مش بتاعتك.

اقترب منه الرجل وكاد يفتك به لولا أن تدخّل مرسي الذي طالع الرسالة القصيرة وقال للرجل:

- اثبت عندك، إوعى تقرب للشيخ محمد.

نظرت إليه عفيفة نظرةً كلها تعجّب، كما ضربت معالم الحيرة وجوه الجميع حتى شكري، ثم

أشار مرسي إلى حجرته المجاورة للمقبرة وهو ينظر إلى شكري ويقول:

- اتفضل يا شيخنا.

ثم نظر إلى الرجلين وطلب منهما الرحيل والعودة بعد يومين، وبالفعل انصرف الرجلان بعدما

نظر أحدهما إلى عفيفة نظرة يملؤها العتاب، شعر بها شكري.

استقبل مرسي بغرفته شكري وأكرم ضيافته، ثم دعاه إلى رؤية الغرفة التي سيمناها له، وكانت

على بُعد عدة ممرات من حجرة مرسي ملحقةً بأحد الأحواش المهجورة، بلغا الغرفة ثم قال له:

- الغرفة دي يا شيخنا هتستقبل فيها الضيوف اللي عايزين يعملوا أعمال وأحجبة والذي منه.

- طيب وأنا إيه دخلي يا مرسي أفندي؟

- إيه دخلك إزاي؟! ما هو توفيق قالي إن ليك كرامات.

- مش فاهم!

- هو قال كده في جوابه، عامةً أنا مقدّر إنك تعبان، هسيبك تريّح وبكرة نتكلم.

صمت شكري ولم يكن له سوى التزام الصمت، تركه مرسي بالحجرة التي لا تحتوي سوى

على أريكة ومقعدين ومنضدة صغيرة عليها مبخرة، افترش الأرض ووضع حقيبته أسفل رأسه ثم

نظر إلى السقف، لا يصدق ما آل إليه الأمر واستسلم للنوم.

بينما اتجه مرسي إلى غرفته حيث زوجته عفيفة التي استقبلته بالسؤال:

- مين ده يا مرسي؟

- ده شيخ، أخويا توفيق قالي عليه في الجواب.

- شيخ إيه ده أفندي!

- معرفش هو قال ليه كرامات وتوفيق عمره ما كذب عليا، أنا حتى عرضت عليه يشتغل معنا

بس سكت، أنا قلت يمكن هيسأل أسيادنا ويرد، قلت أسيبه وأرجع له بكرة.

- لا شيخ ولا حاجة، تلاقيه نصاب!

- بس يا عفيفة، بكرة نشوف حكايته إيه.

- طيب يا أخويا، الراجل بتاع التربة متديهاله، باين إنها بتاعته والشاهد باسم جده.

- هنشوف.

أخذ مرسي يبحث عن سجل المقابر على الفراش وداخل خزانة الثياب دون جدوى، انصرف

للخارج متوجّهاً لأحد المقاهي، بينما طالعت هي أمرًا ما أسفل الفراش، ثم عادت إلى فراشها

مطمئنة وهي تتساءل عن هوية شكري.

انقضى الليل ومضت عدة ساعات صباح اليوم التالي قبل أذان الظهر، حين سمع شكري طرقات على حجرته وشخصاً ينادي:

- يا مولانا يا مولانا.

لم يكن هناك غيره، لذا تعجب وفكر في احتمالية أن من قطن بتلك الحجرة كان شيخاً، ففتح باب الغرفة ليجد مرسي الذي انقضَّ عليه معانقاً، وهو يقول:

- شيخنا ومولانا بركاتك.

- خير يا مرسي أفندي؟

- عرفت منين؟

- عرفت إيه؟

- إن المقبرة بتاعت الراجل الغلبان؟

- الخديوية في مصر من أربعين سنة مش سبعين سنة زي الراجل ما كان بيكذب!

- أنا مش فاهم الكلام ده، اللي أعرفه إن كلامك صح والمقبرة طلعت بتاعت الراجل الغلبان، أنا

لقيت السجل وتأكدت منه بعد ما لقيته واقع تحت السرير، دَوَّرت عليه الفجر وكانت الجماعة نائمة فلقيته الحمد لله، أحلفك بالله يا مولانا تشتغل معانا.

- أنا مش بتاع أعمال وبخور يا مرسي أفندي!

- والنبي ما تحرمنا من بركاتك، توفيق قالي.. إن كان على المكان، فأنا هضبطه وأفرشهو لك،

الشيخ "محبوب" اللي قبلك مكانش فارق معه الأوضة أنا هروقها لك.

لم يجد شكري أمام إصرار مرسي وحاجته إلى مكان يؤويه سوى القبول، وصار في لحظة

"الشيخ الكرداوي".

كانت الأيام التالية في حياة شكري أو الشيخ الكرداوي حافلة بالأحداث المبهرة، بينما أضحت

المقابر قبلة الأحباب والمغرمين، حيث تأتي إليه أي فتاة تريد أن تكسب قلب رجل، وأخرى تمنع

رجلاً من أن يهنأ مع زوجته، وأخرى تريد أن تعود لطليقها، وأخرى تطلب زواج أحد بها، وأخرى

تريد أن تهدأ من عنف زوجها، وقد كان يتحايل على تلك الأعمال بالقرآن، بعيداً عن أي عمل من

أعمال الجن والشياطين كما كان يفعل الشيخ "محبوب" من قبله.

أصلح مرسي له غرفته، ووضع لها باباً رديء الصنع، فكان يُصدر صريراً متواصلًا دون

قصد يدب الخوف في قلوب الزائرين من العشاق، فيظنون أن هناك من يحيط بهم، وقد كان شكري

يدرك أن العطر الذي تطلقه أعواد البخور والدخان الكثيف الذي تُخرجه مبخرته عندما يُلقى

البخور على النار ينفذان لعقول الزائرين ويلتحف الضباب بهم، ثم استمر فيما يفعل، وطالت لحيته،

وتدثر بالجلباب على هيئته والقلنسوة الصوف على رأسه والشال على كتفه، بينما يزمجر بأصوات

مسرحية وهو ينشد الدعاء: "اللهم يا دليل الحائرين، ويا رجاء القاصدين، ويا كاشف الهم، ويا فارح الغم، اللهم يا مُسَخِّرَ الرياح لسليمان، ويا مُسَخِّرَ الحوت لليونس، ويا مُسَخِّرَ النار لنبينا إبراهيم، ويا مُسَخِّرَ جبريل لمحمد سَخَّرَ هذا لذاك وهذه لهذا"، لقد أدرك أن هناك أناسًا لا يعلمون بوجود حرب كونية، وإنما كان جُلُّ همهم هو ونيس الفراش.

شاهد الكثير والكثير، وأدرك أن مرسى مجرد وسيط يأتي له أصحاب الحاجات فيقدمهم لرجل كان يقطن قبله بالمقابر اسمه الشيخ محبوب، لم يكن اسمه محبوب ولكن لقبه فقط، فقد كانت معظم الأعمال والأحجية تتعلق بالحب والكراهية، كما أدرك أن عفيفة تلك المرأة اللعوب أشرس من مرسى بكثير، ففي بداية الأمر كانت نظراتها إليه كلها كراهية، وأنها كانت تحتال ليحصل الرجل على المقبرة بالباطل، ثم مع الوقت كانت تتحين أي فرصة للمجيء إلى عش الولي الجديد الشيخ "الكرداوي"، تختال بصدرها وشعرها الأسود، إذ كانت أحلامها أكبر من قامتها القصيرة بكثير، فلم ترفض عملاً أو حجاباً، لربط أو تفريق أو حسدٍ، وكانت نظراتها مفضوحة للجميع إلا مرسى، فقد كان نظره لا يحيد عنها، أو ربما يسيطر مظهرها على مجال رؤيته فلا يرى سواه، لكن كان أغرب ما رآه شكري هو أن أبناء السودان، تنتشر مقابرهم هنا رغماً عنهم، لقد جاء بهم أبناء محمد علي والبريطانيون، وكانوا لا يتعاملون فرادى بل بالقبيلة، أما الشيخ نمر وخير فهما نموذجان متناقضان، نمر رجل من السودان كان جده سلطاناً في أراضيها، أصبح لا يرى من الدنيا إلا الرثاء على ما فات، منفصلاً تماماً عن حاضره، يحضر أحجية للمتوفين، ولقاءً لأجداده السلاطين، لا يعرف عن الحاضر إلا رفضه، كان يأتي كل أسبوع طالباً حجاباً يحفظ ابنته، ويُغير على أعدائه، كان كارهاً لأسرة السلطان المصري والبريطانيين، أراد أن يتلخص منهم بالدعاء والأحجية، فطلب من مرسى أن يصنع له شيئاً يقضي عليهم بتركيبة شيطانية تشعل النار فيهم كما فعل جده نمر مع إسماعيل بن محمد علي، فطلب مرسى من الشيخ الكرداوي صناعتها.

كان يصطحب ابنته قمر، جميلة الشكل والطفلة، سمراء لكن وجهها مضيء كالقمر، لا تنخرط كثيراً في أي حديث، والتي كان من الواضح أنها تشفق على والدها ولم توافقه في جميع أموره وطلباته من الشيخ الكرداوي، لكنها تُجله وتحترمه.

لم يكن هناك قط للحب سبب بل يكفي أن يأتي هكذا ليعلن عن وجوده كأن إرادته منفصلة عن إرادة العشاق يتحكم فيهم بإشارة من يديه، وهذا ما حدث للكرداوي حين رقَّ قلبه لقمر، وسقط في غرامها، لذا كان كثير السؤال عن الشيخ نمر، لم يمر يوم إلا ويسأل مرسى عنه، يستفسر عن حاله وعنوانه، فانتبه مرسى للأمر حتى إنه حدَّث ربة العفاف زوجته عن أمر الكرداوي وشغفه بقمر، ودون قصد أشعل نار الغيرة الموقدة في فؤاد عفيفة فأحرقته أي بارقة خير فيه، ومن وقتها حرصت على اصطحاب قمر عند كل زيارة للمقابر حتى لا تلتقي بالشيخ الكرداوي على انفراد.

أما الشيخ الآخر فكان الشيخ "خير" هذا الرجل السوداني الطيب صاحب المنسأة ومحل قباب

السودان، وفي يوم تفاجأ به الشيخ الكرداوي يطرق على بابه حيث لم يكن يعرفه، لكنه دلف إلى الغرفة وصب جام غضبه عليه وكال له الاتهامات بإفساد العلاقة بين بعض بيوت السودان، لا سيما أنه يعلم أن الحاج "نمر" يزور المقابر والشيخ الموجود بها، فخشي أن يكون الأخير يعد الأعمال لإفساد العلاقة بين سكان حارة الصوفي، وقد كان "خير" يتوقع بعض المقاومة من الساحر شيخ المقابر، لكنه تفاجأ بعمره الصغير، وباستسلام شامل منه، حتى إنه أجلسه إلى جانبه، وأفهمه أن الشيخ محبوب الذي يقصده قد رحل، وأنه لا علاقة له بالمشعوذين، ولكن ظروف الحرب قضت على حلمه في الرحيل للدراسة، فرقَّ له قلب "خير" ونصحه بالابتعاد عن صنع أي حجاب أو عمل ضد أبناء السودان، بل أعطاه ورقة مدونًا بها عنوان حانوته إن احتاج إليه.

عندما طلب مرسى صنع أمرٍ ضخيمٍ كهذا ضد الإنجليز لصالح الشيخ نمر اعتقد الكرداوي أن "نمر" سيمنح هذا العمل لأحد من أقاربه كي يستخدمه -بحكم كبر عمر الرجل وبطء حركته- فأراد أن يصنع عملاً يفاخر به الشيخ نمر أمام حبيبته قمر، أراد أن يمجد اسمه ويصنع ما لم يصنعه من قبل، لقد صنع قنبلة، لكن الرجل خيب الرجاء وألقى القنبلة دون أن يشعل الفتيل لذا لم يكن أمام الكرداوي سوى خيارين حددتهما أوراقه، وهو على أبواب المقابر، حيث أخرج من الحقيبة ورقتين؛ إحداهما باسم جريدة نيويورك تايمز البريطانية، والثانية باسم قباب السودان، كان يقف على أبواب المقابر، ولا يدري ماذا يفعل، هل يذهب إلى إدوارد فولت، أم يذهب إلى الحاج "خير"، وبهذا عاد إلى نقطة البداية، بينما تحدد مستقبله ورقة مجهولة.

أصيب "محمد شكري الكرداوي" باضطراب شديد حين علم أنه تورط فعلياً في جريمة كبرى ضد الإنجليز، بعدما ألقى الشيخ "نمر" قنبلة من صنعه على القوات الإنجليزية، فنظر بحيرة إلى الوركنتين قبل أن يقرر وضع الأولى في جيبه والأخيرة بقبضة يده، وانطلق إلى نهاية شارع قصر النيل بعابدين حيث مسجد كخيا وميدان الأوبرا المواجه لحديقة الأزبكية، ثم استقل الترامواي إلى ميدان العتبة وكان أثر صدى القنبلة التي أُلقيت على فندق شبرد المواجه لحديقة الأزبكية ما زال سارياً بين الناس، فلم يمض عليها أكثر من ساعة، ذهب إلى مقر الجريدة، وسأل عن إدوارد فولت لكن لم يكن له وجود؛ لقد انطلق لتغطية أحداث القنبلة التي أُلقيت، وأخبروه أنه سيعود في غضون ساعة، لم يطلب أحد منه الانتظار ولم يكن المكان مؤهلاً لذلك، هكذا كان الإنجليز لا يستضيفون أحداً، بل يرحلون دائماً برحالهم، ويستقرون حيث يشاؤون، ثم يرحلون وقتما يشاؤون.

كان عليه أن يقضي تلك الساعة في أي مكان بعيداً عن مقر الجريدة التي أضحت كما خلية النحل بعد أنباء القنبلة، فلم يجد سوى حديقة الأزبكية المجاورة للمكان، فمع أشجارها وزوارها لن ينتبه إليه أحد، وانطلق بالفعل عبر ميدان الأوبرا، ثم حاول الدخول إلى الحديقة من الباب المجاور لنادي السلاح المواجه لميدان الأوبرا، ولكن اكتشف أن الجميع في طريقهم للخروج، وأن هناك قراراً بإخلاء الحديقة، وفي لحظة رأى قمر، قمر التي اهتز قلبه لها، ولكن كان هناك من يرافقها بل من وضع يده على كتفها مودعاً إياها بينما لم تكتف بذلك، بل أمسكت بقلادة تتدلى من رقبتها وكأنها تُقبلها، فأخذ شكري يفكر: "كيف تفعل ذلك؟ تلك الخائنة، من هذا الرجل؟ من الذي أغواها؟ إلى درجة تجعلها تتغافل عن والدها الذي فُبض عليه للتو، من صاحب هذه القلادة التي سحرتها؟"، وحينها أضحى سلاطين في لحظة غريم شكري، وقتها لم ينتبه سلاطين لمن ينتبعه، وقد كان أمام شكري ساعة تقريباً حتى يعود إلى فولت، لكنه أراد أن يعرف من أغوى قمر، وحين تتبعه وجده يقترب من الفندق ويتحدث إلى أحد الجنود بل ويبتسم إليه، إنه يتشفى فيما حدث لنمر، فحاول شكري أن يتخفى كي لا يراه أحد، فصنعه تلك القنبلة جعل لديه مخاوف من أن يقرأ أحد أفكاره ويجول بخاطره فيكتشف عمله وصنيعه.

عندما جلس سلاطين على المقهى جلس شكري بدوره، وتهاياً له أن هذا السوداني أو النوبي أو المصري الأسمر، يتحدث إلى نفسه، إنه يندوق الشاي بصورة مقززة، يرتشف كل قطرة بطريقة مختلفة، وراح يشرد مرة أخرى: "ماذا به كي تُعجب به قمر؟! أنا مصري، أنا أبيض، عيناى خضراوان، أنا متعلم، أنا أحبها، ألا تعلم ذلك؟ وكيف تعلم وأنا لم أصارحها؟ ألم تشعر بنظراتي إليها؟ ألا تكفي روعي التي كانت تلتحف جسدها وتدور في فلکها وتتكئ على ظلالتها؟ لقد سعت روعي لها، لقد سكنت الروح جسدي فقط للوصول إليها، كيف لا تشعر؟ ألم تشعر بخفقان قلبي؟! لقد سمعه الموتى، لقد أشفقوا على حالي، لقد رفضت "عفيفة" دون مرة، لم أنجس هذا الجسد حتى

لا تأنف الروح من استضافتي لها! قمر، لماذا فعلت ذلك؟ من هذا الرجل الذي استطاع أن يغتتمك مني؟ لن أتركه، إنه غريمي".

لم تمض دقائق حتى كان سلاطين يقف متجهًا ناحية شبرد وكأنه يمعن النظر بمشهد يرتوي منه، بينما يراقبه شكري وقد امتلأت روحه كراهيةً، لقد استبدل بحب قمر كراهيةً لسلاطين، ثم وجده يتجه ناحية العنبة حاملاً قماشًا يتوجه به إلى إحدى حارات شارع المغربي، ثم توقف وصافح أحد الإنجليز الذي خرج من أحد البارات بينما يُظهر له المحبة، ففكر شكري في كون سلاطين فاسقًا مثلهم وساحرًا بالتأكيد، أغوى قمر وصادق الإنجليز، وبعدها دلف سلاطين إلى الحارة واختفى، وحين امتلأ قلب شكري كراهيةً لسلاطين عاد إلى مقر الجريدة القريب "نيويورك تايمز"، عاد لإدوارد فولت، لكنه لم يجده، ولهذا لم يكن أمامه خيار آخر، الورقة الثانية، قباب السودان.

اتجه إلى بولاق مسرعًا، بينما حاول أن يتخفى في جلبابه بعدما طوى رداء الأفندي في حقيبته، خشية أن يتتبعه أحد، اعتقد أن من يتتبعه أراد أن ينال من "محمد شكري الكرداوي" طالب العلم الذي تربطه علاقة بمحمد فريد وعبد العزيز جاويش، فاضطرب عقله وتغافل عن فكرة أن جريمته تتعلق بصنع قنبلة بصفته الشيخ "الكرداوي".

تابع خطواته المترددة المتوجسة خيفةً من أعين الناس حتى بلغ حانوتًا اسمه قباب السودان، لصنع القدور، وجد الرجل الستيني الذي انكبَّ كعادته على إحدى القدور.

- السلام عليكم يا شيخنا.

لم يرفع الرجل رأسه، بل استمر في عمله، فقد تعرّف على صاحب الصوت، وظهرت بشاشة على ملامحه أظهرتها نبرة صوته وهو يقول:

- وعليكم السلام يا شيخ؟ اجلس يا ولدي...

وأشار إليه ليجلس إلى جانبه على العنقريب، فتردد شكري وهو يقول:

- أنا...".

وقبل أن يكمل حديثه، قاطعه "خير" بعدما التفت إليه وهو يقول:

- أنت الشيخ "كرداوي"، أعتقد أنني أنسى الأصوات والوجوه، أنا لا أنساها أبدًا يا ولدي".

لمح "خير" الحقيقة التي بيد الكرداوي، فقال له:

- أهلاً وسهلاً بك يا ولدي، سأحضر لك قهوة قبل أن تستريح.

وحينها ارتبك الكرداوي بسبب هذا الرجل الذي يعرف أنه يريد الاستراحة، ثم صاح على ابنته شمس لتعد لهما القهوة، وكان شكري في تردد كبير من أن يفتح "خير" لاستضافته، ولكن "خير" كان رجلاً حكيمًا، جعل الأمر يبدو وكأنه هو من يعرض عليه الاستضافة حتى يرفع عنه الحرج، لقد قدم له عنوان حانوته عندما كان بالمقابر ليلجأ إليه إن احتاج، وها هو ذا أتى بحقيبته فأبي

احتياج أكثر من ذلك!

- خيرًا فعلت يا ولدي.

- ماذا فعلت يا شيخنا؟

- تركت المقابر.

صمت شكري وأدرك أن "خير" استنتج رحيله.

- لا أريد أن أثقل عليك يا ولدي، تناول قهوتك لتتصعد إلى غرفتك بالسطح، لن تجد أفضل منها

أبدًا، صلِّ العشاء ونم واسترح، وغدًا نتحدث كما نشاء.

بالفعل لم تمر سوى عدة دقائق كان فيها شكري يرقد على سرير مُعد سابقًا لضيوف الشيخ

"خير" من السودان، ثم شررد بفكره، وهو ينظر إلى القمر عبر النافذة الخشبية الصغيرة، متمنًا

بأسى:

- لماذا فعلت ذلك يا قمر؟".

أغمض عينيه كمدًا وراح في سبات نوم عميق، لم يفق منه إلا ظهر اليوم التالي، ليجد إلى

جانب فراشه منضدة صغيرة يعلوها بعض أصناف الطعام، كان قد نسي أنه لم يتناول الطعام منذ

يوم كامل، تناول الطعام وخرج من غرفته في اتجاه حافة السطح الذي يرتفع لطابقين فقط عن

الطريق، ونظر من أعلاها ليجد "خير" قد افترش بالأسفل أحد المقاعد وهو يصنع أحد الأباريق

وإلى جانبه شمس التي قدمت لهما القهوة أمس، وهي أقرب إلى المصريين منها إلى السودانيين،

خمرية اللون، عيناها صغيرتان، عندما ابتسمت له أغلقت عينيها، وظهرت خصلات شعرها البني

أسفل طرحتها، وبالفعل لمحته شمس، فكررت الابتسامة وأخبرت والدها الذي قبض على علم

أخضر صغير وأشار به لشكري ليجالسه بالأسفل، هز شكري رأسه دليلاً على الفهم، واتجه بتؤدة

للأسفل بينما كان يفكر فيما سيقوله له، ثم استقبله "خير" ببشاشة، وهو يبتسم ويشير إلى العلم

الأخضر قائلاً:

- إنها وسيلتي في النداء على ابنتي شمس، عندما ترى العلم إلى جانبي فهذا يعني أنني أدعوها

إليّ، اشرب قهوتك يا بني، وإن أردت فإلى جوارى هنا مزين يصلح لك حالك".

ابتسم شكري وقبض على لحيته وهو يقول: "عندك كل الحق"، لقد تذكر أنه في حاجة إلى تغيير

ملامحه، فأوصافه الآن معروفة لدى الإنجليز بفعل اعترافات نمر، لذا حلق لحيته وهذب شعره،

وعاد في هيئة جديدة إلى "خير" الذي ابتسم وهو يقول: "إن أردت أن تتحدث فتحدث يا ولدي، كلي

أذان مصغية".

ظهر بعض الارتباك على شكري ثم ضرب بيديه على فخذه وكأنه يدفع بأفكاره خارج جسده

الذي احتواها رافضاً أن تخرج: "أنا لم أفعل شيئاً يا شيخنا، لقد طلب مني مرسى أن أصنع عملاً

ضد الإنجليز بسبب أضراراً لهم، فاعتقدت أنه يتحدث عن أحد الأعمال السفلية، وعندما أعددت

أحدها من بعض الجذور والأغصان العفنة التي لا تصلح لأي شيء، طلب مني أن يجعل هذا العمل ينفجر، فاستبدلت بالبذور البارودَ ووضعت له فتيلًا فإن أراد أن يشعل الفتيل لينفجر البارود فعل، وإن لم يفعل فهو وشأنه، ولكن هذا الرجل ألقى بالقماش دون أن يشعل الفتيل فلم تنفجر وقُبض عليه".

- من هذا الرجل؟

- قرييكم هذا.

- من تقصد؟

- نمر.

- هذا الخرف لقد أذهبت الخمر عقله.

- قُبض عليه وأنا لا أعرف ماذا أفعل؟

- لا شيء، ابقَ هنا ولا تخشَ، لن يتذكر أي شيء ولن يفصح عنك.

- كيف ذلك؟

- أنا أعرفه جيدًا، يقبل الموت ولا يقال عنه إنه خائن، لقد عاشرتَه كثيرًا ولطالما تعجبت من

طباعه، يؤدي الفرائض ولا يتركها حتى يصلي العشاء ثم يذهب إلى بار الشيخ علي ليحتسي الخمر

بكل أريحية ولا يرى في ذلك أي معارضة للدين فقد أدى الفرائض وسمح لنا الله ببعض الراحة من

بعد العشاء حتى الفجر فإن أردت أن تستزيد في عبادته فهذا لك، وإن أردت أن تستريح وتقضي

بعض الملذات التي لا تضر أحدًا سواه فلا خطأ، هكذا كان يفكر، لن تجد في بياض أسنانه أحدًا،

حتى لا يبقى للخمر أثر عندما يصلي، لن يشي بأحد يا ولدي.

ثم ربت على كتفه، ونظر إلى السماء وهو يقول:

- لك الله يا نمر، لطالما توقعت أن هذه النهاية له، لن يساعده أحد".

- لماذا؟

- إنها قصة طويلة أرويها لك في المساء إن أردت.

اطمأن شكري للرجل فنهض وربت على كتفه وهو يقول:

- بضعة أيام فقط يا شيخنا".

نظر خير إليه وكأنه يعاتبه فابتسم شكري وانطلق إلى السطح، حيث شعر ببعض الراحة التي

جعلته يفكر فيما حدث، وكيف تطورت معه الأحداث بتلك الطريقة من طالب علم بمصر إلى أمل

بالرحيل إلى إسطنبول إلى هارب إلى تركيا إلى مقبوض عليه، ثم ساحر ورجل أعمال ثم هارب،

رغم كل ذلك ابتسم، حتى جالت بخلده قمر وإلى جوارها صاحب القلادة فاخفت الابتسامة.

في المساء صعد الشيخ "خير" إلى شكري واصطحبه إلى داخل تكعيبية من الخوص غير مكتملة

الأركان لها حائط خليط بين النباتات والخوص يجعل لها خصوصية عن مرمى بصر حجرة

السطح، افترض الأرض وهو يقول له:
- ناولني هذه الأخشاب....

ثم ضرب يده على الأرض بروية حتى يجلس إلى جواره، وضع بعض الأخشاب في قصعة وأشعل بها النيران ثم وضع برادًا أحاطه السواد الكاحل على النيران، بدأت أصوات فرقعة الخشب تذوب ألعانها في أذني شكري، لقد كانت السماء صافية جعلته يشعر أنه في ضفاف الجنة ثم ارتشف الرجلان بعض شاي الراكية دون حديث؛ حيث كانت النجوم منثورة والقمر يراقبها في خشوع، كلُّ منها يتباهى بجماله وبريقه، حتى أشار "خير" إلى إحداها وهو يقول:
- هذه من أتت بنا إلى هنا".

تعجب شكري، وتساءل:

- أيها تقصد؟

- هذه التي على شكل زهرة، كانت مرشدتنا إلى حبيبتى.

- حبيبتى؟

- نعم مصر، فقد رحلنا من السودان.

ثم ألقى ببصره على القمر وهو يدندن:

"مشتاقين يا ناس لبلاد الذهب

نادرين لما نرجع تاني لبلاد الجمال رباني".

ثم صمت حين بدأت بعض الأصوات والزغاريد تتراعى على مسامعه، فانزعج شكري بينما

افترَّ ثغر "خير" وهو يقول:

- إنه سبوع يا ولدي، حياة جديدة.

ثم اقترب برأسه إلى شكري وهو يقول بلكنة سودانية وكأنه يستعيدها:

- أتدرون يا ولدي، كل ما نحن فيه في مصر والسودان بل والإنجليز هنا بسبب سبوع مثل

هذا!".

ظهرت علامات التعجب على وجه شكري، لم ينتظر "خير" تسأله فاستعاد وضعيته، وانكأ

بإحدى ذراعيه على الأرض، ورفع مقدمة رأسه إلى السماء وكأنه يستعيد مشاهد من الماضي وأخذ

يقول:

- لقد كان الشيخ "محمد شريف نور الدايم".

صاحب الطريقة السمانية إحدى الطرق الصوفية في السودان وأشهرها على الإطلاق، له أتباع

في طول السودان وعرضها، حتى أتى له في يوم طالب علم زاهد، رجل نحيف أسمر لا يميزه

سوى الفلجة في أسنانه، وطيب خاطره وهدهوء وجدانه، التمس فيه الشيخ الولاء والطاعة والتقوى

والورع، كان ابن جزيرة "أبا" ابن الصياد الفقير محمد أحمد المهدي، حتى جاء اليوم الذي احتفل

فيه محمد شريف بسبوع أبنائه، كان كما هذا اليوم حيث افتترشت الموائد وعلت أصوات الغناء، لكن الزاهد لم ينطل عليه ذلك، فعبر عن غضبه وأن هذا لا يحتمله الدين، فبلغ محمد شريف هذا الأمر، وطرده الرجل من معيته، حتى أصبح منبوءاً لا طائفة له، ثم عاد راکعاً وخاشعاً يلتمس المغفرة من محمد شريف، لكن الأخير تجبر ورفض، في تلك الفترة كان ينافس محمد شريف شيخ المهدي إلى جوقته وأجاره فقهياً وأصبح ذراع اليمنى وزوجه ابنته ودون اسمه في ديوان السالكين في الطريقة السمانية، لكن الأمر لم يأت على هوى محمد الشريف أشهر مشايخ الطرق الصوفية في السودان، فطلب من المهدي أن يعود إليه فقد قبل اعتذاره، لكن المهدي رفض وصرح بأنه لم يرتكب خطأ، كانت تلك هي الحادثة الأولى في السودان التي يطلب فيها أحد المشايخ أحد طلابه فيرفض، ولم يكن أي أحد يعلم أنه محمد شريف ."

ذاع صيت تلك الحكاية وبدأ الجميع يذهب إلى هذا المهدي ليصروه ويتطلعوا إليه، فكيف يرفض أمر الشريف؟ حتى ذاع صيته يوم بعد يوم وجاءه عبد الله التعايشي وتقرّب إليه وبث سمه في أذنه واعتقد أنه المهدي فعلاً، تراخت مصر في محاربته أول الأمر بسبب الثورة العرابية، واقتنصت إنجلترا الفرصة.

- نعم نعم لقد سمعت الحديث هذا من قبل.

- أي حديث؟

- لقد كنت في فندق بالإسكندرية، وتصارع صحفيان حول هذا الأمر إحداهما امرأة، ورجل يُدعى إدوارد فولت، يدّعي ضعف مصر والخلافة العثمانية، بينما المرأة رأت أن ذلك نتيجة مؤامرة إنجليزية.

- إذاً هي ليست إنجليزية؟

- اسمها "ماليس" محررة صحفية بجريدة "الديلي ميل" من أيرلندا، صدقني لا أعرف حتى الآن

أيهما أصدق؟

- هي بلا شك.

- ولكنك لا تعرف ماذا قالت بالضبط.

- ولكنني أعرفها.

- كيف تعرفها؟

- ومن منا لا يعرف زوجته؟!!

كانت تلك هي الضحكة الأولى لشكري منذ أن ترك الإسكندرية، إذ ارتجَّ جسده ووضع قبضة يده على صدره وهو يحاول مسح الدموع التي سالت على وجنتيه بيده الأخرى.
- طال عمرك يا مولانا.

بينما لم يتغير وضع "خير" استكمل حديثه قائلاً:

- لقد حاولت بريطانيا أن تتخلص من أنصار عرابي فأرسلتهم تحت قيادة البريطاني "هيكس" للقضاء على المهدي، ولكن المهدي أعد لهم مصيدة غابة شيكان، انقض عليهم رجال المهدي بقيادة عبد الرحمن النجومي ففضى على الجيش في ساعات لم ينجُ منهم فرد واحد، استولوا على سلاح سبعة آلاف جندي، وفي لحظة أصبح للمهدي جيش وأسلحة، انضم إليه الجميع فقد انتصر على الجيش المصري، بل انتصر على بريطانيا، قويت شوكته في السودان وحاول الكثيرون التقرب منه، واهتم هو بالسيطرة على القوة الحقيقية في السودان، الطرق الصوفية، وقتها كنت من خدام سيدي الميرغني".

اعتدل شكري في جلسته حين أدرك أن "خير" لم يكن يسخر منه.

- لم يتقبل سيدي الميرغني هذا الادعاء، فهذا الرجل لم تتوفر فيه شرائط المهدي فهو ليس من نسل النبي فكيف له هذا الادعاء؟! حاول المهدي أن يتقرب إلى الجميع حتى من خارج السودان فقد أرسل إلى السنوسي في ليبيا ليكون أحد خلفائه الأربعة، تشبهاً بالنبي -صلى الله عليه وسلم- لكن أهم من اهتم بالتقرب إليهم كانوا شيوخ الطرق الصوفية وكان من ضمنهم مولانا الميرغني صاحب الطريقة الميرغنية، أرسل المهدي الهدايا للتقرب لأصحاب الطرق الصوفية وعلى الأخص الطريقة الميرغنية لانتشارها فأرسل بأنفس هداياه إلى شيخنا، فكانت عبارة عن أسيرة أجنبية شابة كانت تغطي أحداث السودان، فكانت "ماليس"، أسرها المهدي وأرسلها إلى مولانا الميرغني، ولأنه يعلم أن رفض تلك الهدية معناه إعلان الحرب عليه، فقد قبل الهدية ولكن ليظهر عدم قبوله للمهدي، أهدى على الفور تلك الأجنبية إلى أصغر خدامه فكانت أنا من نال هذا الشرف، وصارت "ماليس" زوجتي.

ارتسم الذهول على قسماط وجه شكري حتى إنه نهض على ركبتيه وهو ينظر مندهشاً إلى عم "خير" الذي ابتسم وأمسك بكفه وجذبها لأسفل كي يجلس مجدداً، ثم زاغت عيناه وهو يلمس الوشاح الحريري الأزرق الذي يغطي رقبته وهو يقول:

- لا تتعجب يا ولدي، لقد أهدتني السماء أجمل شموستها".

ابتسم شكري ابتسامة واسعة وهو يقول:

- إنه نفس وشاحها الأزرق....

ثم تساءل:

- هل أحببتها؟! -

- ومن لا يحب الشمس، إني أتذكر يوم أن دلفت إلى سقيفتي، ألبسها الحريم رداءنا وتلحفت بوشاحنا حتى تكتسب الحشمة، ولكن ظلت كما هي، أضواؤها مختلفة، لم تكن أسيرة في أي لحظة، حتى في أضعف أوقاتها كانت تهاجمك، كان أقوى ما فيها ضعفها، وبينما كان الوقت ليلاً والنافذة الصغيرة تعلق رأسها والقمر يتلصص منها، كانت المرة الأولى التي يجتمع فيها الشمس والقمر معاً، لقد كانت قيامتي، وذهولي، لم تتردد لحظة، بل ألفت بملابسها كاملة وبكل غضب قالت: "افعل ما شئت لكن إياك أن تنسى أنه سيأتي اليوم الذي أرد لك فيه أي إهانة"، كان غضبها كأشعة الشمس حارقة، لم أر ملامحها، لقد اغرورقت عيناها بضياؤها، لم أر للقمر أشعة فقد تاه في أضوائها، لم أر أيًا من ملامحها، لقد ضربت أضواؤها عيني فوضعت أمامها طبقاً من الفاكهة، ونظرت إليها لدقيقتين، لا أذكر ماذا فعلت بعدها، ولكنها هي من اقتربت مني عندما اغرورقت عيناها، كانت تريد أن تتيقن أنني إنسان، قد يشعر بالقهر، والذل والإهانة، والحب، ولكنها لم تدرك أنني مذهول، أعطيتها ظهري وقلت لها: "استري نفسك، والله ما ألمسك قهراً أبداً"، كانت أمانة فهي مودة ورحمة قبل أي شيء، ثم انزويت لأحد أركان سقيفتي، وتدثرت برداء وأغمضت عيني اللتين كانتا تطردان دموعهما طرداً، لقد أرادت أن يسكنهما مشهد الشمس فقط، أما هي فلا أعلم ماذا فعلت، أعتقد أنها كانت تخاطب القمر، مرت الشهور على هذا الحال، لم ألمسها قط، أما هي فقد تحدثت إلي كثيراً ولكنها لم تنطق بكلمة، لقد كانت تتحدث إلى عيني، أعتقد أنها... (ثم تردد للحظة) أحببت طباعي.

مرت الشهور حتى كانت نهاية المهدي واضطربت الأمور عندما أراد عبد الله التعايشي الانفراد بالسلطة، فاستغلت هذا الاضطراب وهربت إلى النيل حيث كان هناك وابور في الماء ينتظرها، لقد رأيتها وهي تهرب، ورأيتني، لم أنطق بكلمة ولا هي كذلك، كنت على بُعد عشرين قدماً منها، أخبرتها دموعي بكل شيء، ولكن ما لا أستطيع أن أنساه أن دموعها كانت تودعني بدورها وهي تنطلق من الأسر.

كان شكري في حالة ذهول كاملة وهو يتمتم قائلاً: "لقد أحببتك يا مولانا يا إمام العاشقين، أنت لم تر كيف كانت تتحدث عن السودان! الآن فقط فهمت، لقد كانت تدافع عن كرامتها التي مددت أنت يدك لها ورفعت عنها الذل".

في تلك اللحظة دلفت شمس إلى السطح ووضعت طبقاً من كعب الغزال وآخر من المدينة أمامهما، ربت "خير" على يدها وهو يقول:

- سلمت يا شمس نهاري وليلي.

ثم ابتسمت وانطلقت عائدة، فتابعها شكري مبتسماً حتى تأكد من اختفائها، ثم نظر إلى "خير" وقد اتسعت ابتسامته وهو يقول:

- إنها تذكرك بـ"ماليس"؟".

- أتعجب من الذي يرى القمر ويعجب به ولا يرى الشمس، آاه يا سلاطين!
لم يفهم شكري مقصده ولكنه انتبه لكلمة قمر، فكانت تلك هي اللحظة التي اخنفي فيها وعي الرجلين، لقد ذاب عقل شكري في قمر وتذكر صاحب القلادة، بينما ذهب عقل "خير" إلى سلاطين الذي يعشق قمر ولا يرى ابنته شمس، ودون أن يدري أحدهما أنهما يفكران في الشخص نفسه اخنفت أضواء شمس وعادت أضواء القمر، فاستأذن "خير" عائداً، وبقي شكري في موضعه يتأمل القمر.

في اليوم التالي، استيقظ شكري متأخراً، ثم نظر إلى حقيبته وطالعتها وتذكر الخطاب، وهو يتمتم: "متى تصل إلى شاطئك؟".

وفي لحظة تغيرت نبرة حركته وتسارعت، فارتدى بدلته وانطلق، حيّاه "خير" دون أن يسأله عن وجهته، وعند مدخل الحارة ابتاع إحدى الجرائد التي تصدرها عنوانها الرئيسي "قوات السنوسي تطلق النيران على غواصتين بريطانيتين بطريق الخطأ"، "الألمان يُغرقان الغواصة "تارا" والغواصة "مورينا" على سواحل طرابلس" ، وقبل أن يطوي الجريدة رأى عدوه الأول يقترب، إنه صاحب القلادة والقبعة يتجه إليه، تجمد شكري في موضعه وأخذ يحملق في وجه الرجل الذي يقترب، حتى إن سلاطين انتبه إليه وارتسمت علامات التعجب على وجهه وهو يمر إلى جانبه متسائلاً: "لماذا يحملق فيه هذا الرجل الأشقر صاحب العينين الخضراوين؟".

اضطرب شكري وأصابته الحيرة فهذا هو اليوم الوحيد الذي يقرر فيه الاستغناء عن متابعة صاحب القلادة، لئيفاجأ بأنه من يأتي إليه متباهياً بقبعته البريطانية، ثم انطلق شكري وسؤال واحد يضرب عقله: "ماذا يريد هذا العميل؟ ولمن يأتي؟".

في ذات الوقت كان سلاطين يلقي التحية على "خير"، الذي استقبله ببشاشة كعادته، أجلسه إلى جانبه وسلاطين يتمتم بصوت ضعيف:

- الشيخ "نمر".

- أعرف أنه فُبض عليه.

- لقد تحدثت أبي إلى أحد الضباط وواعد بأنه سيحاول أن يفرج عنه.

- أي ضابط؟

- يقول اسمه النجومي.

- ما دام أنه سوداني فلن يفرجوا عنه.

- تقصد أن نمر ما دام سودانياً فلن يفرجوا عنه؟

- بل أقصد ما دام أن الضابط سوداني فلن يجعلوا لسوداني أي فضل.

ثم تغيرت ملامحه وهو يقول:

- إنها بالأعلى.

- مَنْ؟

- من أتيت لرؤيتها، قمر، لقد جاءت مبكرًا للشمس، أقصد لابنتي شمس. سأتي معك كي تصافحها إن أردت...

أوما سلاطين برأسه موافقًا قبل أن يفهم "خير" ويستأذنه لدقيقة لجمع شيء داخل الحانوت، دلف الرجل إلى داخل المحل، وفي تلك اللحظة اقترب سلاطين من مدخل المنزل حيث كانت شمس قادمة إلى والدها الذي يضع العلم الأخضر إلى جانبه، فنظر إليها سلاطين مبتسمًا ثم إلى العلم وهو يقول:

- لقد أراك أن تنزلي.

فابتسمت له وصافحته وهي تقول:

- أنت تعلم عادته.

ثم ترددت وهي تقول:

- قمر معي، لقد سعدنا للتو إلى السطح لننظفه.

ابتسم سلاطين وهو يقول:

- إذاً هناك ضيوف كالمعتاد، إنه الشيخ "خير" قَبلة السودانيين جميعًا.

فأجابته شمس:

- ليس ضيفًا سودانيًا هذه المرة، إنه مصري.

وهنا تعجب سلاطين وهو يتساءل:

- مصري؟!!

- نعم اسمه الشيخ الكرداوي.

لم تكمل شمس جملتها، لقد تذكر سلاطين وصف "عفيفة" للشيخ الذي أغوى قمر ولم يتذكره سوى الآن، إنها الأوصاف ذاتها، هذا الأشقر حامل الجريدة، وفي لحظة كان سلاطين ينطلق خلفه. تلقت يمينًا ويسارًا ولكن لا أثر لهذا الكرداوي، لم يستطع أن يغالب غضبه، سيطرت الهواجس على عقله ووسوست له فلم يكتفِ هذا الساحر والمشعوذ أن يسرق حبيبته بل أغواها شر غواية، لقد اقتنصها لنفسه وتجرع كأس حبها، أخذ يفكر بأن هذا النجس شكري لم يقوَ على الابتعاد عنها، لذا جاء إلى الحارة ليكون بقربها، بل جاءت هي لتكون في قربها، لقد سحرها، ثم ارتكن إلى أحد الحوائط عندما شعر بأن جسده يتهاوى حين تذكر مقولة "خير" من أن "نمر" لن يزوج ابنته إلا بسلطان أو سحار، وها هي ذي المقولة تكاد تتحقق، لقد جاء الساحر، أخذ يردد: "لقد فعلت المستحيل كي أكون في قربها لكن لا فائدة مع وجود هذا الساحر!"، ثم بدأت مشاهد عديدة تتوارد إلى عقله، تذكر عندما وصفته قمر بأنه الأبيض صاحب العينين الخضراوين، ويفكر: "لماذا تنتظر

إليّ أنا الأسود صاحب الفلجة؟!"، كما تذكر عندما كانت تنظر إليه من المشربية وتساءل: "هل كانت تودعني صباحًا أم تنتظره؟ ماذا كان يحدث بالمقابر؟! بل ماذا كان يحدث هنا؟!"، وألقى بنظرة عابرة نحو الحارة، أفكار عديدة ضربت برأسه وهو مأخوذ بلا وعي يتحرك بلا هدف، لم يشعر بأي شيء حتى شعر بألم أصاب يده عندما ضغط على الشيء الذي ابتاعه وأخفاه في ورقة وهو شارد الذهن، لقد جرحه السكين!

دلف "إدوارد فولت" إلى مكتب توماس راسل الذي استقبله بفتور شديد، لم يكن يحب هذا الرجل فقد كان يعلم أنه متلون بمائة وجه، مهنته تجعله يتلصص المعلومة من هنا وهناك، وإن كان هذا مقبولاً ومفهوماً لكونه صحفياً، لكن محاولته التقرب إلى "كتشنر" ومساعدته "رونالد ستورس" الذي يعشق الصحفيين باعتبارهم مصدرًا مهمًا للمعلومة وبحكم أنها مهنة خاله -الذي له فضل كبير في حياته المهنية- كانت مفضوحة للجميع، رغم ذلك بدأت سياسة فولت تؤتي بثمارها، حيث اعتمد كتشنر الرسم الذي قدمه لتحفيز البريطانيين على التطوع للحرب، وأصبح مصدرًا مهمًا للمعلومات للمكتب العربي البريطاني بالقاهرة، هذا المكتب الذي أتى على رأسه "رونالد ستورس" أصبح هو المسؤول عن جمع المعلومات عن البلدان الشرقية وتحليلها وإرسالها إلى الحكومة البريطانية، وفي ضوءها تتحدد السياسات قبل تلك البلدان، لقد كان كما الباب الخلفي لرسم السياسات في تلك الدول. جاء فولت في زيارة خاطفة لراسل منطلقًا من مقر جريدته التايمز البريطانية المجاور لمقر راسل والمكتب العربي الذي اعتاد زيارته في الطابق الثاني، ثم تساءل وقد ارتسمت ابتسامة بلهاء على وجهه:

- ماذا عن الرجل السوداني صاحب القبيلة، مستر راسل؟".

أجابه راسل:

- تستطيع أن تستعلم من صديقك ستورس في الطابق الثاني.

ثم أمسك الهاتف مصطنعًا انشغاله لينهي اللقاء مع فولت.

في تلك اللحظة وفي الطابق الثاني في المبنى نفسه كان هناك من يتحدث إلى ستورس، رجل لا يرتدي زيًا عسكريًا بل عباءة وكوفية وعقالًا، ورغم ذلك لم يكن عربيًا بل كان "توماس إدوارد لورانس"، رجل لا تجد فيه ما يلفت انتباهك سوى عينيه شديديّ الزرقة حتى قامته كانت قصيرة لا تصلح للجنديّة، لولا ترشيح "هوكارث" عالم الآثار البريطاني الذي أعجب بهذا الفتى عندما قدم أطروحة حول الفن المعماري الحربي عن الصليبيين في الشرق، لتكون وسيلته الجهنمية في زيارة القلاع التي بناها الصليبيون في سوريا ودول الشام والعراق، لولا هذا الترشيح لما تم قبوله للالتحاق بخدمة بريطانيا، لقد كان هذا الرجل هو وأطروحته هما أنسب وسيلة لاستطلاع خطوط العدو العثماني دون أن يشعر به أحد، هذا الفتى ضئيل الجسد باهر العقل، تعلّم اللغة العربية بإتقان شديد فأمدّه "هوكارث" الذي أضحى عضو المكتب العربي بالقاهرة لشؤون المخابرات البريطانية بكل ما يلزم من كاميرا وذخيرة لإتمام مهمته، صار يده اليمنى في المكتب العربي، وطُبعت الخرائط التي رسمها لورانس في مطبعة بولاق بالقاهرة، لم يشعر بهذا الفتى الغريب أحد، تحدى ذكاء الجميع، فرغم حساسية منصبه لا يقود سوى دراجة بخارية سريعة وفرتها له القيادة البريطانية، لم يثق به ستورس وحده بل كتشنر أيضًا الذي صار وزير الحرب البريطاني، لم يكتفِ

لورانس برسم الخرائط والاستماع إلى السكان المحليين في كل البلاد العربية التي مرَّ بها على قدمه ليدون كل شيء، لا، لقد استطاع أن ينفذ إلى أهم الشخصيات في الجزيرة العربية في ذلك الوقت، حتى قامت ثورة الجزيرة العربية على السلطان العثماني.

كان لورانس يودع ستورس قبل عودته إلى مكة وقد لفت انتباهه كثيرًا تلك الزجاجاة الشفافة التي أخرجها ستورس من خزائنه عندما أخرج بعض الأوراق، والتي احتوت على عشبة ذهبية أو بصورة أدق نصف عشبة، لم ير مثلها، وبينما كانت أضواء المصباح مسلطة على الزجاجاة ظهرت كأنها كوكب دُرِّي، فتساءل الرجل:

- ما تلك العشبة العجيبة؟

ابتسم ستورس وأراح مقعده للخلف وهو ينظر إلى السقف قائلاً:

- لقد كانت تلك العشبة أندر مكاسبي ودليل غبائي، عشبة لا تموت، يظل لونها وأصاؤها كما لو كانت في الأرض، لا تظهر ورقتها ونبتتها على سطح الأرض التي وُضعت فيها إلا بعد مرور ثلاثين عامًا، لا أعلم كيف تركت هذا الجندي يفر مني؟! لم أدرك وقتها أنه يكذب، لم يخبرني أين يخفي النصف الثاني للعشبة؟ لقد أدركت بعد حين أن تلك العشبة لا تظهر إلا لمن يشبهها، لمن هو نادر مثلها، هي التي تختار من يجدها، ولكن عندما أتذكر هذا الجندي المصري لا أرى فيه أي شيء مميز، فلماذا وجدها؟ إن الصحراء لا تكذب.

جال بعقله لثوانٍ ليوظفه لورانس بقوله:

- سيدي أعاهدك إن وجدت مثلها في الجزيرة سأتي بها لك.

ابتسم ستورس وهو يقول:

- أنت على شفا امتلاك عشبة ذهبية أخرى نادرة في الجزيرة العربية.

في تلك اللحظة دلف جندي إلى مكتب ستورس ليأذن لمسترد إدوارد فولت بالدخول، فأذن له بالفعل، وصافحه وسمح له بالجلوس، وعزّف الرجلين بعضهما ببعض، ثم أكمل حديثه مع لورانس قائلاً بينما ينظر إلى فولت:

- إن الكيان المهترئ أو ما يطلق عليها صديقنا إدوارد فولت السيكلوب مسيطر على جليبولي، وإيطاليا لم تحسم موقفها بعد، وإنما تناور للحصول على أكبر مكاسب من الأرض، حيث تريد دالماسيا وإستريا من النمسا، لذا إن سيطرنا على الجزيرة العربية ستكون ضربة موجعة.

نظر لورانس إلى ستورس نظرة ارتياح لوجود فولت، فضحك ستورس ليطمئنه وهو يقول:

- أكمل، إنه رجل من رجالنا.

فأجابه لورانس:

- لقد حذرت من قبل سيدي من مسألة إمداد طرق المواصلات إلى شبه الجزيرة ثم إلى بغداد،

لقد شاهدت بأم عيني عند زيارتي لآثار تلك المناطق، الاستعدادات لبناء خط السكة الحديد برلين-

بغداد".

- نعلم ذلك مستر لورانس.

نهض الأخير من مقعده وابتسم وهو يقول:

- اسمح لي بالانصراف مستر ستورس، فأنا أستعد للرحيل.

صافحه ستورس بعناية شديدة، كما انحنى له فولت وهو يصافحه، ولكن عند باب المكتب التفت لورانس وقد ارتسمت على شفثيه ابتسامة تحمل ذات اللون النحاسي الذي انطلت به العشبة وهو يشير بإصبعه إليها قائلاً:

- أعاهدك سيدي أنني سأجدها لك.

ثم انطلق.

لم تغب نظرات ستورس عن الباب حيث اختفى لورانس، فقال وقد غاب ذهنه وكأنه يتذكر العشبة الذهبية:

- لا أعرف لماذا أثق بهذا الرجل؟ رغم أن ما يقوله مستحيل لكني أثق به".

- اسمه لورانس، أليس كذلك؟

- نعم إدوارد هو "توماس إدوارد لورانس" الابن غير الشرعي لـ "توماس تشابمان".

- تاجر الأراضي؟

- نعم.

- هل التحق بالعمل لديكم في المكتب سيدي؟

قال ستورس باقتضاب:

- إنه عالم آثار مستر إدوارد.

ثم تبدلت معالم وجهه وأظهر ابتسامة ودودة في محاولة لتغيير مجرى الحديث:

- والآن نعود إليك ما الأمر فولت هل نفدت نقودك كالمعتاد؟

- كلا كلا سيدي، ولكني علمت منذ عدة أيام بأمر القنبلة، وأردت أن أتساءل عن تطور الأحداث.

ابتسم ستورس وهو يقول:

- ليس هذا ما جئت من أجله إدوارد، هات ما عندك، ولن ننسى مكافأتك.

وبالفعل أطبق فولت قبضتي يده وكأنه يُمني النفس بمبلغ مالي كبير، فقال بكل حماس:

- منذ فترة قصيرة أتى إلى الفندق الذي أقطن فيه بالإسكندرية شاب مصري كان على شفا السفر إلى إسطنبول حتى تم إعلان الحرب بين دولتنا العظمى والكيان المهترئ تركيا، فانقطعت سبل السفر عنه.

قاطعه ستورس في حدة وهو يقول:

- أنت تتحدث عن أمر حدث منذ أكثر من شهرين.
- حاول إدوارد أن يتجنب هذا اللوم وهو يقول سريعاً:
- لقد حاول هذا الشاب أن يهرب إلى تركيا من خلال ليبيا ولكن ألقى القبض عليه، فتدخلت للإفراج عنه.
- لماذا وأنت تعلم أنه يريد السفر إلى العدو؟
- الخطاب.
- أي خطاب؟
- لقد كان يملك خطاباً مرسلاً من الحزب الوطني بمصر إلى المشاغبين "محمد فريد" و"عبد العزيز جاويش".
- بدت معالم الاهتمام والجدية تسكن وجه ستورس وهو يتساءل:
- وأين هذا الرجل؟
- لقد وعدني بأن يأتي إليّ في الجريدة، وبالفعل أتى يوم إلقاء القنبلة على شبرد لكنه لم يجدي، انتظرت عودته من يومها قدر ما استطعت لاكتساب صداقته وثقته والفوز بهذا الخطاب لكنه لم يأت.
- كيف هذا يا فولت؟! لقد أضعت صيداً ثميناً، إن محمد فريد أكبر الداعمين لتركيا ويشكل خطورة كبيرة على بريطانيا لعلاقته بالألمان وقربه من الحكومة التركية، يجب الوقوف على مضمون هذا الخطاب مستر فولت، فقد يحمل خطراً ضد بريطانيا، ما اسم هذا الفتى؟
- محمد شكري الكرداوي.
- لقد رسمت صورة له تشبهه تماماً، وتشبهه ملابسه التي كان يرتديها في صورته بتذكرة سفره، قد تساعد في الوصول إليه.
- ابتم ستورس وهو يقول:
- أحسنت، لقد اعتدنا ذكائك مستر فولت.
- قالها ثم ضرب ستورس قرص التليفون ليطلب سكرتير مكتبه وأمره على الفور بتوزيع نشرة واحدة على كراونات الشرطة الثمانية التي تتكون منها شرطة القاهرة، نشرة تحمل رسماً واحداً لـ"محمد شكري الكرداوي"، وجملة واحدة أسفل اسمه: "مطلوب القبض عليه".

- ما الذي أصابك اليوم؟ أتذكرت الآن أن هناك فجرًا؟! لقد كنت في سبات عميق لسنين.
ابتسم الشيخ "خير" وهو ينظر إلى أعلى عندما سمع صوت ديكه الذي اعتقد أن الخرس قد أصابه منذ سنين، ليس هو فقط بل وجميع ديوك سطح منزله، فقد كانت كأنها في حالة سبات، لكنها اليوم فقط ولسبب غير معلوم قد عادت للحياة.

نزل إلى حانوته وانخرط في عمله حتى جاءه صوت أحدهم:

- لقد صرت شيخاً!

- ألا تتذكرني؟

- أنا...

كانت تلك هي المرة الأولى في حياة الشيخ "خير" التي يلتفت فيها دون أن يكتفي بالإنصات إلى الصوت، ولم يكتف بالالتفات أيضاً لكنه غالب عوامل الزمن واتكأ في سرعة على منسأته التي سقطت وكاد يهوي لولا أن وضعت "ماليس" راحتها كي يتكى عليها، والتقت العين بعد ثلاثين عاماً من الفراق، لا نعلم من كان يربت على الآخر، إنه مشهد لا يمكن تخيله، شيخ بالجلباب تجاوز الستين عاماً بقليل ضربت معالم العجز والشقاء قسماً وجهه، انحنى ظهره، ولكن بقيت روحه كما هي، وأخرى أجنبية شقراء ترتدي القبعة وتتهادل خصلات من شعرها الأشقر أمام عينيها كأنها حجاب يحميها من أعين الغرباء، لكنها أزاحتها كي تملي عينيها من هذا الكهل رغم أنها تخشى النظر إلى عينيها، فقد اختبرت تلك النظرة من قبل ولا تستطيع أن تنساها، لقد أحببتها وصارت جزءاً من ذاكرتها.

"لماذا تركتني؟"، اغرورقت عيناه وهو يمسك وشاحها الأزرق الذي التف حول عنقه وهو

يقول:

- لقد كنت أنا أسيرك!

أدرك محمد شكري أنه مطارَد من البوليس، فخشي العودة في ذات اليوم إلى منزل "خير" خاصةً أنه رأى في أثناء عودته إلى منزل خير ليلاً، عسكرياً يلصق للتوّ صورةً له على أبواب وحدة البوليس داخل محطة السكة الحديد مدوناً أسفلها اسمه وأنه مطلوب القبض عليه، تلك الصورة كانت تحمل رسماً لشخصية طالب العلم التي لا تشبه سوى تذكرة مروره والتي كانت قد التُقطت له حديثاً، ولم يطلع عليها أحد سوى الضابط البريطاني على الحدود المصرية- الليبية، وإدوارد فولت، فهول سرياً مبتعداً عن مبنى محطة مصر وقد انطبع في عقله رجل ثالث، السوداني عميل الإنجليز صاحب القبعة البريطانية والقلادة، فتحدث إلى نفسه وتساءل: "لقد كان

يراقبني بالتأكد وعرف مكان اخفائي واطلع على تذكرتي، فلماذا لم تُطبع صورتتي سوى الآن؟ لقد كانت معلومة للإنجليز منذ القنبلة، ومنذ محاولة فراري إلى ليبيا، أياكون إدوارد فولت؟ ربما! أياكون هذا السوداني العميل؟ ربما! لقد صرت في خطر محقق".

عدل محمد شكري من مخططه فبدلاً من العودة إلى الشيخ "خير" انطلق إلى مقابر الشافعي، كان يعلم أن مرسي قد آثر السلامة وانطلق إلى قريته وبصحبتة عفيفة، فانطلق إلى عشة مرسي وطرق بابها أكثر من مرة قبل أن يقرر اقتحامها، لكنه شعر بصوت داخل الغرفة وسمع صوت عفيفة وهي تصيح وتتساءل:

- من بالباب؟

فقال:

- أنا الشيخ الكرداوي".

انطلقت نحو الباب في سرعة وفتحت وهي تثبت صدرها الذي كان يعلو ويهبط في سرعة ولهفة، وقد كانت آثار دخان تملأ المكان، وبعدها تساءل شكري مسرعاً:

- أيا مرسي؟

فقالت وهي تحاول أن تتعلق في ردائه:

- إنه بالقرية....

ثم أدركت عفيفة أن شكري يتساءل في عقله عن هذا الدخان، فقالت:

- حسيت إن فيه أرواح شريرة فقلت أولع شوية بخور، تعالى هنا وخليك جنبي أنا خايفة".

أبعد شكري يدها وهز رأسه يميناً ويساراً، لا تعلم إن كان يوافق أم يعتذر، لقد كان على ثقة تماماً بأخلاق عفيفة، وفي حركة غير متوقعة انطلق داخل الغرفة فابتسمت عفيفة وأغلقتها، ولكن بدلاً من أن يتجه إلى الفراش اتجه إلى خزانة الملابس وأخذ يبعثرها يميناً ويساراً وهو يقول:

- أيا هو؟

بدأت معالم القلق تضرب وجه عفيفة وقد اقتربت منه لتحاول غوايته وهي تقول في تعجب:
- يعني يكون مستخبي في الهدوم؟! ما أنا قلت لك يا حبيبي المنيل في البلد، أنا قلت له إني هستنى عند أختي هنا في مصر".

حاول شكري أن يوضح قصده وهو يقول:

- أنا أعلم أن مرسي يخفي مسدساً هنا.

حاولت عفيفة أن تسيطر على صوتها وهي تلمس ظهر شكري ورأسه وهو يبحث في خزانة الملابس ثم قالت وهي تتصنع صوتاً ملائكياً:

- المنيل أخذ المسدس معه، عايزه ليه يا حبيب قلبي؟

حاول أن يتحاشى نظراتها النارية التي حاولت السيطرة على جسده، ثم أجابها وقد بدأت غوايتها

تُشعل نيرانه:

- هذا السوداني الكلب وعشيقته...".

اتسعت عينا عفيفة بصورة شيطانية، وتذكرت لوهلة أنها أوغرت صدر سلاطين ضد شكري وليس العكس، ولكن أيًا كان الأمر لقد نجحت خطتها وعاد شكري، ثم اقتربت من الدكة أسفل النافذة وقد بدأت ترفع طرفها لتظهر خزانة خفية في قلبها ثم تركتها وهي تقترب منه وتقول:

- تاخده بس بشرط....

ثم اقتربت منه حتى التصقت به.

كانت لحظة حاسمة، لقد التقى الغريمان في مكان اختاره القدر، شارع إبراهيم باشا أمام مسجد كخيا، وكأن إبراهيم باشا أراد أن يكون الشاهد عليهما في الحياة وبعد الموت، فإلى جوار قبره يرقد أموات السودانيين الذين كان يجالسهم الشيخ شكري الكرداوي في مقابر الشافعي، وها هو ذا تمثاله الرابض في ميدان الأوبرا يراقبهما في لحظتهما الأخيرة.

كان هذا المكان الذي يحوم فيه شكري بحثًا عن سلاطين وذات المكان الذي اعتقد فيه سلاطين وجود شكري حيث مقر جريدة إوارد فولت، حيث كان سلاطين قادمًا من ناحية شارع المناخ بينما شكري من ناحية الأوبرا الخديوية المجاورة لحديقة الأزبكية، حتى انتبه الغريمان أحدهما للآخر في مواجهة مباشرة، لا يفصل بينهما سوى شارع إبراهيم باشا الذي يؤدي إلى عابدين والقصر، ولكنه لم يكن يومًا عاديًا قط، لقد كانت لحظة مرور السلطان حسين كامل، وكان القدر أبي أن تمر اللحظة دون أن يشاهدها رأس الدولة نفسه السلطان حسين نائبًا عن إبراهيم باشا، حيث كان يقبع في سيارته المكشوفة وإلى جواره كبير أمناء القصر "سعيد باشا ذو الفقار"، بينما يقف على الجانبين عدد من العساكر وبعض المواطنين القلائل، فهذا السلطان لم يحظ قط بأي شعبية بل أسماه البعض مثل "محمد فريد" بالبرنس الخائن، وفي تلك اللحظة قرر بعض المواطنين المدسوسين من الحكومة وبعض العمد التعبير عن حبه للسلطان، والاقتراب من سيارته ليقدموا الورود، وكأنها كانت اللحظة التي يجب أن يستعد عندها الغريمان، حيث يرتدي شكري جلبابًا في محاولة للتخفي، فقد انتشرت صورته بالبدلة، بينما جاء سلاطين بقلادته وقبعته المعهودة، وكانت لحظة تقديم عدد من المواطنين الزهور للسلطان هي لحظة الانطلاق، فقد أطلق الغريمان الرصاص في نفس اللحظة، وارتبك المشهد بالكامل حين أصيب أحد الجنود من حراس السلطان ولكن أي من الغريمين لم يصب بشيء، وفي غضون ثوانٍ حاولا تكرار المحاولة، فانتبه أحد الجنود لشكري، وحاول القبض عليه، لكن الأخير رفع طرف جلبابه وانطلق بين الطرقات خلف جامع كخيا، والجندي ثقيل الجسد يهرول وراءه محاولًا اللحاق به، بينما انتبه جندي آخر لسلاطين وهو يحاول إطلاق الرصاص فمد يده في سرعة في محاولة للقبض على سلاطين الذي تراجع للخلف، فلم يجد

الجندي ما يقبض عليه سوى قلادة سلاطين، وبالفعل قبض عليها وتعلق بها وانطلق الأخير بين دروب العتبة.

فشل الغريمان في قضاء أحدهما على الآخر، ولكن نجحت بريطانيا في استغلال الموقف في اليوم التالي عندما تصدّر عناوين الصحف خبر محاولة اغتيال السلطان حسين كامل من عصابة محمد فريد وأنصار الدولة العثمانية، ثم أشارت إلى محمد شكري الكرداوي المعروف لديهم، وأشارت إلى صاحب الرصاصة الثانية الذي لم يتعرف عليه أحد، ولكنه ترك دليلاً واحداً عليه متمثلاً في القلادة التي وضعت بريطانيا صورة لها في متن الخبر، ولم يتعرف أحد من البريطانيين على هوية الجاني الآخر، سوى بريطاني واحد رأى القلادة من قبل.

قبل حادث محاولة اغتيال السلطان بثلاثة أيام، كان سلاطين قد أقسم بالألا يبقى هذا الكرداوي على وجه الأرض، ثم توارى عن الأنظار لكن حارة الشيخ "خير" في مرمى بصره حيث لا يفارق أحد المقاهي التي يستطيع منها أن يراقب مدخل الحارة، لم يهتم لأمر السيدة الأجنبية التي دلفت في الصباح إلى الحارة، لكن ما أقلقه هو أن هذا الكرداوي لم يظهر منذ الصباح، فقد كانت لديه قدرة غريبة على الصبر والجأء في انتظار غريمه، حتى عندما أغلق المقهى أبوابه مساءً لم يترك مكانه واستمر في المراقبة، كان لديه إصرار على الانتقام، حتى لمح قادمًا وهو يتخفى كاللص، كان ينظر يمينًا ويسارًا قبل دخوله إلى الحارة يتأكد من عدم متابعة أحد له، وفي لحظات كان سلاطين خلفه حيث اتجه شكري إلى السطح في سكون تام حتى لا يشعر به أحد، لقد أراد أن يعود فقط ليأخذ خطاب محمد فريد وتذكرة سفره ويهرب دون عودة، فدلف إلى الحجرة واتجه إلى حقيبته، أخرج منها الخطاب ولكنه لم يجد تذكرة سفره، هز رأسه وهو يقول: "لقد فعلها صاحب القلادة..."، وقبل أن يُعيد البحث، ارتد على عقبيه نحو الباب ليجد أصعب كوابيسه قد تحقق، فقد كان من ينتظره بالباب صاحب القبعة والقلادة، لكنه لم يكن وحيدًا بل يقف بينما يحمل بيده سكينًا تخيلها وهي تقطر من دمه، وفي لحظة اشتبك الغريمان حيث قبض شكري على يد سلاطين بكلتا يديه في محاولة لإبعاد نصل السكين الذي اقترب من صدره، وترنحا معًا في قوة وسقطا على الأرض، الغريب أن كليهما لم يُحدث صوتًا، لقد أراد أن يحقق كلُّ منهما مراده ويختفي، فليمت شكري أو يمت سلاطين، ثم التقت أعينهما التي كانت تشيط غضبًا، وصكت الأسنان وسقطت الأواني مُحدثَةً ضجيجًا، حتى جاءت صرخة واحدة لم يعهدا الغريمان، حيث كان رأساهما يلاصقان الأرض فاقترب مركوب سوداني مصنوع من جلد التيس إلى جانب رأس سلاطين بينما تفاجأ شكري بحذاء حريمي ملون له كعب، وبعد أن كانا على شفا الموت أصبحا يتساءلان: "ما الذي جاء بهذا إلى جانب ذلك؟"، ثم رفعوا أعينهما ليجدا المرأة الأجنبية إلى جانب عم "خير"، يصرخان فيهما، والتقطت "ماليس" السكين، مما أصاب الغريمين بالدهشة، فسلاطين لا يعلم بأمر تلك المرأة الأجنبية، وما علاقتها بخير، وشكري لم يتخيل أن "ماليس" سوف تستجيب له بتلك السرعة عندما ذهب ليخبرها بمكان عم خير، ثم ما الذي جمعها معًا في هذا الوقت؟

قال خير:

- ماذا تفعلان أيها الأحمقان؟".

أخذ شكري المبادرة وهو يقول:

- إنه عميل للإنجليز، لقد كان يراقبني وأبلغ عني الإنجليز وصورني تنتشر في كل مكان.

دفعه سلاطين بكتفه وهو يقول:

- كيف تجرؤ أيها الكلب! أنت الخائن، أنت من حاولت تلويث شرفنا بأسحارك وأردت خطف

لكنها لم تستجب، فنظر إليها خير نظرة رجاء وهز رأسه قليلاً بطريقة كان لها مفعول السحر، كأنه يُذكِّرها بلغته في السودان، ذلك الصمت السامي الذي يحمل كل معاني اللغة من طلب ورجاء ونهي وأمر، فجلست وهي تبتسم ثم نظر خير إلى سلاطين وهو يقول:

- شكري هذا يا ولدي ليس شيخاً ولا عميلاً للإنجليز، بل طالب علم وهو مصري ووطني مثلنا جميعاً يا ولدي.

نظر سلاطين إلى ماليس وكأنه يسأل عن أمرها، فابتسم شيخ خير وهو يقول:

- اهدؤوا وسوف أقص عليكم كل شيء.

نظر إلى سلاطين وقصّ عليه أمر شكري وكيف أنه وطني يحاول أن يغادر إلى إسطنبول؛ ليكمل دراسته ويؤدي أمانته للزعيم محمد فريد، ثم بدأ يقصّ قصته مع ماليس، وسلاطين تضرب معالم وجهه الدهشة، أصابته الصدمة بالصمت والسكون، فتلك المرأة هي زوجة الشيخ خير، ثم تساءل في تلقائية:

- أيعني هذا أن شمس ابنتها؟!!

ضحكت ماليس وتبعها خير وهو يقول:

- كلا يا ولدي، لقد تزوجت بعدها ولكن توفيت زوجتي والدة شمس.

اختلفت معالم الابتسامة عن وجه ماليس، فأكمل خير حديثه وهو ينظر إلى ماليس قائلاً:

- ولكن يظل من بالقلب بالقلب.

ليسمح بعودة الابتسامة إلى وجنتيها من جديد، واستكمل:

- يا ابني نحن ننتمي إلى هذا الوطن بقلوبنا جميعاً، لا أعلام تفرق بيننا، لا نجمة واحدة ولا ثلاث، وإنما راية خضراء تدعو للسلام تشعر معها بالراحة كأنها حديقة.

ثم نظر إلى شكري ثم إلى سلاطين وماليس وهو يقول:

- أما أمر سلاطين فإنه لم يرد على خلد بشر، إن أمره لعظيم؛ به العظة والعبرة التي خفيت على الجميع، حتى من روى قصته.

تساءل سلاطين:

- ماذا تعني يا عماء؟.

- يا ولدي ما سوف أقصه عنك لا تعلمه أنت، حتى أمين والدك هناك ما لا يعلمه عنك.

- كيف هذا؟

- فالتصتوا جميعاً فما سأرويه قطعة من السماء، هو خيال على الأرض، جاء ذكرها على لسان الرجل الطيب أمين.

- تقصد والدي؟ فكيف تقول إن هناك ما لا يعلمه عني؟

- كلا يا ولدي فأمين أه أه... فالتصت وتستمع.

أنا أتذكر كل كلمة قالها أمين، لم تفارق كلمة منها ذاكرتي، كان يروي لي أنا وأخي خازن
-رحمة الله عليه- وعيناه زائغتان.

لقد كان طقسًا عجيبًا يسيطر عليه لهيب الصحراء كأنه رطوبة البحر، حين تسلمت مناويتي حول معسكرنا الذي امتد على الحدود الإدارية للسودان، وضربت الخيام قرب بئر الشيطان، بئر يمتد عمقها مقدار ٧٠ قدمًا وتمتد مسافة مائة متر، والتي حفرت السيول طريقًا لها من جبال البحر الأحمر فاحتفظت الأرض بهذا الرمق الأخير من مياه السماء، كان هذا يمثل وسيلتنا الوحيدة ليس في الشراب فقط بل في الطعام أيضًا، بل الوسيلة الوحيدة لسكان الصحراء من غير البشر، وقبله الحيوانات التي كانت تلجأ إليها بعد أن يضرب الليل بأمواجه على سماء البئر.

وقد كنا نقيم حول بئر الشيطان حاجزًا يعلو مترًا تقريبًا كي يسهل صيد الحيوانات التي ضربت عباب الصحراء متجهة إلى جنتها بعدما تعطر الجو برائحة الماء، وانتظرت هبوط الليل لتنهل ما تستطيع من المياه، ومع وجود الحاجز تحتشد ليلاً بالقرب منه حول صخور الوادي فتكون صيدًا سهلًا.

لكن لم نكتفِ بذلك فقد وضعنا أعشاشًا تُمكننا من اصطيادها أيضًا، كنا نضع بين فتحات الحاجز الصخري حول ماء البئر خواتم شوكية يبلغ طولها عشرة سنتيمترات مغطاة بأعشاب متصلة ببعضها بعضًا، ومربوط بأحد الخواتم الشوكية صندوق صغير في حجم علبة السجائر فإذا اقترب الوعل ضرب بفمه في الأعشاب، فتتعلق به الأشواك عند هربه لتصدر العلبة صوتًا وترشد عنه. كنا نضرب بخيامنا مسافة ألف متر بعيدًا عن البئر حتى لا تفرغ الفرائس، وفي يوم ذهبت ليلاً لأستقصي الأمر، وأترقب اصطياد إحدى الغنائم، وقد صدق حدسي بالفعل فقد اصطادت إحدى الأعشاش فريسة، وحين سمعت صوتًا اقتربت بحرص شديد وتأهبت بسلاحي، انطلق الوعل فأطلقت عليه الرصاص، لكني كلما اقتربت كنت أشعر أن ما أسمع ليس جوارًا أو عواءً ولكنه بدا كأنه بكاء.

نعم إنه بكاء طفل رضيع وإلى جانبه والدته التي علقت بأحد تلك الأعشاش، ويبدو أنها ذرفت الكثير من الدماء، فقد كانت نصف غائبة عن الوعي، شفتاها جافتان متشققتان بفعل العطش، شعرها أسود خالطه لون رمال الصحراء، جلبابها كجلباب أهل النوبة والسودان لكن بشرتها بيضاء، إنها شابة، كيف بلغت تلك المنطقة؟ لا أعلم! لذا انطلقت نحوها وضربت يدي بحرص في المياه في محاولة لإرواء عطشها ثم نظرت إلى الطفل البائس أمامها والملقى إلى جوارها لا أعرف ماذا أفعل، فوضعتُ شربة ماء في فمه، فأخذ يتلذذ بها وقد لامست شفتيه بيدي فاقشعر بدني.

يبدو أن المرأة حاولت تسلق الحاجز الحجري فانزلقت قدماها في أحد الأعشاش فضربت السنون الشوكية بأطرافها في قدميها، نظرت إلى الدماء واقشعر قلبي لها، فقد كان جسدها خارج الحاجز وقدمها اليسرى عالقة بين صخوره، فارتمت على الأرض إلى جوار رضيعها، وهي في حالة سيئة للغاية، وضعت السلاح إلى جوارها وهممت بالانطلاق إلى المعسكر، بينما قالت لي في

صوت منكسر غلب همه وكسرتة على ملامح الحياة فيه:

- أنا ابنة أحد الضباط الذين أسرهم المهدي.

فحاولتُ أن أهدئ من روعها، لكنها أشارت إلى الطفل وهي لا تقوى حتى على البكاء، ثم قالت

في همس:

- لقد قُتِلَ أهلي، إنه أمانتك.

وحاولت أن تقبض على يديه، وهي تجاهد لرسم بسمه على شفتيها، فشرعت في سؤالها:

- من هو؟

لكنها أسلمت الروح لخالقها، فبكى الطفل في تلك اللحظة وكأنه يودّع والدته، ثم افترشت الأرض وأغمضت عينيها، وحملت الطفل إلى صدري، فقد رق قلبي لها كثيرًا، إذ كانت صغيرة، لا أعرف ماذا أفعل، ضربت بعيني إلى الخلاء مفكرًا، فوجدت ما لم يرّه أحد، وجدت عيون الوعول تلمع بجانب الصخور، لم تحاول الاختفاء، وكأنها أرادت أن تُقدّم العزاء لهذا الطفل، لكن الأغرب أن أحد تلك الحيوانات الواقفة هناك قد تقدم حتى بلغ الحاجز الصخري، لم يرني أو كأنه تجاهلني، كان يمضغ عشبة، لكنها ليست كأبي عشبة، إنها ذهبية، ثم التفت لي دون أن يخف، حتى إنني رأيت زبد فمه يسيل فاتسعت عيناوي وأنا أتساءل: "أنتحقق تلك الأسطورة التي كانوا يتحدّثون عنها! إنها "الوردة الذهبية"، نبتة نادرة يبحث عنها الجميع، لا تموت وإنما يبقى بريقها ولو اجنّنت من الأرض، ولكن لا تظهر نبتتها إلا بعد ثلاثين عامًا على الأقل، لقد كان يأكلها ولكن لماذا الآن؟"، لقد اجتمعت الغرائب في لحظة واحدة، إنها إشارة، وفي لحظة برقت في عقلي فكرة، فلا يمكن أن أترك هذا الطفل لمصير مجهول، ولذا على مقربة من البئر دفنت الأم التي كانت كف يدها تقبض على حبوب صغيرة، سقطت منها واحدة لونها ذهبي، فتناولتها بيدي ووضعتها في جيبتي، ولم أترك شاهدًا للقبر، ثم حملت الطفل وقد وجدت إلى جانبه ورقة ذهبية من أوراق النبتة التي أكلها الوعل فوضعتها في جيبتي وانطلقت إلى الجنوب، كنت أعلم أنه على مقربة من البئر توجد قبيلة من قبائل النوبة على بعد خمسة كيلومترات، وكنت أعرف شيخها "خازن"، كان رجلًا كريمًا يدين بالولاء لمصر ويكره الإنجليز، وكان ممن ينتمون إلى إحدى الطرق الصوفية تُدعى الميرغنية التي رفضت المهديّة، لذا يطلقون على محمد أحمد المهدي بالمتمهدي لا المهدي، انطلق من الأبيض حتى بلغ حدود مصر منذ عامين، وقلبه يهيم عشقًا لوطنه، انطلقت حتى بلغت القرية بعد ساعة، تراءت لي نيرانها التي اشتعلت والتف حولها عصابة من أهلها ينشدون بألوان العشق للوطن:

"مشتاقين يا ناس لبلاد الذهب

نادرين لما نرجع تاني لبلاد الجمال رباني

جوه البيت هنزرع نخلة تطرح خير وتعمل ظلة

العصافير تلتقط غلة البيت كبير والرملة
دار الساقية في العصرية تحكي حكاوي
والأفراح هتملى الناحية ويا غناوي
مشتاقين يا ناس لبلاد الذهب".

- السلام عليكم.
- و عليكم السلام، اتفضل يا أمين يا ابني اتفضل.
دقق الرجل فيما يحمله أمين وهو يتساءل بعدما سمع صوت بكاء:
- ما الذي تحمله يا ولدي؟
التف أمين حول الدائرة التي اصطنعها أهل القبيلة حتى بلغ الشيخ خازن وطلب منه أن يتنحى جانباً، فاصطحبه خازن إلى خيمته وافترشا الأرض وقد طلب قبل أن يجلس من إحدى السيدات أن تعتني بالطفل وتطعمه، فقد ظهر على ملابسه الاتساخ.
وقبل أن يبدأ أمين بسرده روايته، دخل "خير" شقيق خازن الأصغر، فقال خازن:
- تحدث يا أمين فأنت تعرف "خير"، إنه أخي وكما أنا بالضبط.
ابتسم أمين وأخذ يقص عليهما ما حدث، فضربت ملامح الحيرة على وجه خير والشيخ خازن، وقد أمسك الأخير بلحيته وغابت عيناه في شرود، وقبل أن يستفيق أو يبدي أي بادرة، أخرج أمين النبتة وبذرتها، برقت عينا خازن وهو يتساءل في تعجب:
- ما هذا؟
- إنها الوردة الذهبية.
هز أمين رأسه قائلاً:
- نعم إنها هي، لقد كان يأكلها الوعل إلى جانب الطفل.
في تلك اللحظة دخلت السيدة التي أوكل إليها خازن مراعاة الطفل وهي تقول:
- يا شيخنا، لقد وجدنا هذه.
وأخرجت خيطاً مربوطاً به نصف ورقة من أوراق الكوتشينة عليها رسمه ولد، فتساءل الرجل:
- ما هذا؟
لتجيبه السيدة:
- لقد كانت ملفوفة حول رقبة الطفل، وقلادة فضية عليها رسم بارز لمسجد بجانبه منزل.
ازدادت حيرة الرجل وقد تناول الورقة وأخذ يطالعها، وهو يقول:
- كل ما يحيط بهذا الطفل عجيب، الوردة الذهبية والآن نصف ورقة، إن هذه الورقة لا تقل أبداً عن قيمة هذه الوردة، ثم هذه القلادة فأنا أشعر أنني شاهدت هذا المسجد، لكني لا أتذكره.

وحين رأى بروزًا أسفل القبة ضغط عليه فانفتحت القلادة لتظهر بذرة ذهبية، فبرقت عينا أمين وهو يخرج الحبة التي احتفظ بها وهو يقول:

- إنه مثل تلك الحبة.

قال خازن في دهشة عارمة:

- إنه كنز يا ولدي، إنها حبة الورد الذهبية، إشارات يا ولدي.

أراد أمين أن يضع الحبة التي بيده في القلادة هي والورد الذهبية التي وجدها فأوقفه خازن وهو يقول:

- لقد قسمها الله لك كما قسم لك هذا الطفل، كل ما له لك وكل ما لك له، معك حبة ولديه أخرى، ضع نصف الورد بقلادته فقط، فقد صار جزءًا منك وهي لا تموت ولا تذبل.

وبالفعل قطع أمين النبتة إلى نصفين، وضع نصفها بالقلادة برفقة الحبة الذهبية وأغلقها، واحتفظ هو بنصف النبتة الآخر وحبته الذهبية.

هز خازن رأسه وهو يقول:

- والآن يا ولدي، ماذا تنوي أن تفعل؟".

- إن عدت بالطفل إلى المعسكر فسوف يرسلونه إلى مصر بإحدى دور الأيتام وقد يموت في أثناء هذه الرحلة، نحن في ظروف حرب مع "عبد الله التعايشي" خليفة المهدي وقد يُهمل الطفل.

ثم صمت لبرهة وقال:

- لقد أوصتني به وهي تموت وقالت: "إنه أمانتك فلا يمكن أن أتخلى عنه".

ربت الرجل على كتف أمين، وهو يقول:

- وأنا أوافقك الرأي، جميعها أمارات لا يمكن تجاهلها، أصلح الله من شأنك يا ولدي، اتركه لنا إن أردت.

نظر أمين إليه وعلامات الامتنان قد ظهرت على وجهه وهو يقول:

- حقًا يا شيخنا؟.

- حقًا يا ولدي، ما دام هنا فهو في رعايتي، ولك أن تأتي في أي وقت للاطمئنان عليه، ولكن ما

اسمه؟

- اسم من؟

- الطفل؟

- يصلح حالك يا شيخنا، وكيف لي أن أعرف؟!!

- أصلح الله من شأنك يا ولدي، وجعل الله الصلح والصلاح على يديه، (ثم قال بلهجته

السودانية) هو إذاً "سلاطين".

ابتسم أمين وهو يقول:

- تقصد "صلاح الدين"؟

ابتسم خازن وهو يقول:

- صلاح الدين بلهجتك يا أخي المصري، وسلاطين بلهجتنا نحن بالسودان، قم إلى معسكرك، وائتِ إلى ولدك في أي وقت، فهو في أعيننا يا ولدي.

نهض أمين وربت على كتف خازن وابتسامة امتنان ملأت وجهه، وانطلق إلى المعسكر حاملاً سلاحه وقد انتابه الخوف من أن يشعر أحد برحيله، وبالفعل بلغ المعسكر، وقبل أن يصل إلى البئر، وجد من يأمره بالثبات، إنه "رونالد ستورس" أحد الضباط الإنجليز، أمره بالوقوف في ثبات وسأله:

- أين كنت؟

فهم أمين مقصده لكنه تردد وصمت، فالبريطاني لن يفهم حديثه جيداً، ولن يصدقه وهو لن يخبره، اقترب البريطاني وهو ينظر إلى أمين نظرات الشك والريبة ثم قال:

- أنت جاسوس للتعايشي، أليس كذلك؟

لم يفهم أمين كلمات الرجل، ولكنه أدرك أنه ما دام كان هناك التعايشي وهم في حالة حرب معه فإن الأمر ينذر بالخطر، وأنه يشك فيه، لم يدر ماذا يفعل ولكنه كان يعرف هذا الضابط العنصري، ويدرك مدى حبه ونهمه لكل ما هو نفيس، لم يجد أمين سوى نصف الوردة الذهبية فأخرجها من جيبه ومد ذراعه بها، وحينها لمعت عينا رونالد وبدا الجشع على وجهه، ثم التقط الورقة بكل عناية وحرص، وأخرج من جيبه منديلاً حتى لا تتحطم، وانطلق بها إلى خيمته وأمين خلفه، ثم وضعها في كوب وأغلقه، وخرج إلى أمين ليسأله أين نصفها الثاني؟ وأين وجدها؟ فأخذ يحرك يديه حركة نصف دائرية علامةً للاستفهام عن مكان عثوره على النبتة.

التقط أمين الخيط وأدرك أنه يسأله عن المكان الذي وجدها فيه، فأشار إلى البئر، لينطلقا إلى هناك، وهو يقول:

- كان هناك وعل يأكل النبتة.

وعندما بلغ البئر لم يجد أي أثر لنبتة الوردة الذهبية، لذا بدأت نظرات الشك تصيب رونالد مرة أخرى، ولكن نظرات شك البريطاني هذا خالطها ابتسامة لينة، فهذا الجندي المصري يعلم سرّاً قد يجعل رونالد ثرياً، وفي تلك اللحظة لاحظ أحد الضباط المصريين تلك الحركة الغريبة بين رونالد وأمين، فاقترب منهما فجحظت عينا رونالد وأشار بإصبعه على فمه في إشارة إلى أمين ألا يخبر الضابط بأي شيء، أدرك أمين مقصد رونالد، وعندما اقترب الضابط المصري ربت رونالد على كتف أمين، ثم سأل الضابط المصري أمين في هدوء عما يحدث، ووقتها أدرك أمين أن هذه هي فرصته، فأجابه أنه طلب من ستورس أن يسمح له بزيارة أسرته في قبيلة الشيخ خازن وأن زوجته قد توفيت منذ أيام فأراد الاطمئنان على طفله الصغير "صلاح الدين".

ظهرت ملامح التعجب على وجه الضابط المصري وهو يقول:
- أول مرة أعرف أنك متزوج.

- نعم سيدي تزوجت في السودان، وعندما عادت قواتنا المصرية كانت قبيلة زوجتي بالقرب منا
حيث أنجبت ابني "صلاح الدين" ولكن وافتها المنية، فأردت أن أطمئن على ابني.
- ولماذا لم تطلب مني؟

صمت أمين، ووقتها أدرك رونالد أن الضابط المصري يؤنب أمين، فاقترب رونالد من الضابط
المصري وهو يسأل عما قاله أمين، فأخبره الضابط المصري بقصة زواج أمين، ابتسم رونالد وهو
يربت على كتف أمين، ثم ينظر إلى الضابط المصري وهو يقول له:
- لا تعنفه في شيء، لقد استأذن مني.

فتعجب الضابط المصري وتساءل كيف يأذن له في أمر لا يدركه فأمين لا يتحدث الإنجليزية!
انصرف رونالد، وانصرف الضابط المصري، أما أمين فقد عاد إلى البئر، ينظر إلى الحبة
الذهبية التي احتفظ بها وإلى موضع المسكينة التي دفنها وهي تقبض على حبوب تلك النبتة،
والموضع الذي وجد فيه ابنه صلاح الدين وهو يتعجب من تغيير مجرى حياته في ساعات، إلا أن
أغرب ما أصابه بالدهشة عندما رأى ذلك الوعل الذي كان يمضغ العشب فقد عاد وكأنه يطمئن
على الأمانة التي أودعها لدى أمين، كان ينظر الوعل إلى أمين وعيناه تبرقان ويسيل من فمه سائل
ذهبي، فهز أمين رأسه وكأنه يشكره على هديته... الوردة الذهبية.

اندهش الجميع لما سمعوا، إذ كانوا في حالة سكون، كأنهم صرعى، حواسهم في حالة صدمة كأنها تختبر أخايد العقل الباطن قبل أن تستفيق، بينما كان أول من نجا من تلك الموجة العاتية هو أول من ضربته أمواج الصدمة، حيث نظر سلاطين إلى خير، وهو يقول:
- إداً أمين ليس أبي؟

اقترب منه شكري وربت على كتفه، فنظر سلاطين إلى "خير" وترقب منه أن ينفي ولكنه صمت، قبض على قلادته وهو يقول:
- هذه إداً هي الحقيقة الوحيدة التي في حياتي.
ثم فتح قفلها ونظر إلى الحبة ونصف النبتة الذهبية، وهو يقول:
- لقد كانت آخر من شاهد والدتي.

ثم أغلقها وقبض عليها بقوة وأغلق عينيه وفي لحظة انسابت الدموع منهما، حيث لم يستطع منع فيضانها، وحينها اقتربت منه ماليس وأخذت تربت على ظهره بل وضعت رأسه نحو كتفها، كان مشهداً في غاية الغرابة، لقد تحول الأعداء في لحظة إلى مناصرين وداعمين، احترم الجميع مشاعر بعضهم بعضاً، مرت دقائق حتى استفاق سلاطين من صدمته، نظر إلى خير وهو يقول:
- إداً يا عماء من والدي؟

اشرأبت رقاب الجميع وكأنهم يريدون أن يعرفوا نهاية تلك القصة، فمن سلاطين؟ ومن والده؟
قال خير:

- بعد عدة سنوات من وفاة والدتك عاد أمين إلى مصر واصطحبك معه يا سلاطين يا ولدي، لم يستفد أحد من موت المهدي قدر استفادة عبد الله التعايشي، لقد سيطر على الأمر وعلى الخلفاء الذين استخلفهم المهدي بعده، وأتى بأخيه يعقوب إلى جانبه ونصر قبيلة التعايشة على الجميع، وحاول الاحتفاظ بمقتنيات المهدي المهمة، وبعد مرور أربعة عشر عاماً جاء كتشنر قائد الحرب الإنجليزي الآن وانتصر على التعايشي في أم دبيكرات وسيطر على جميع مقتنياته.

في أثناء عودة كتشنر إلى مصر مر على قبيلتنا واستقبله أخي خازن الذي أدرك من حديث الضباط أمامه أن كتشنر اصطحب بعض المقتنيات الخاصة بالمهدي وسيرسلها إلى المتحف بعاصمتهم لندن، وقد رأى أخي الصندوق الخاص بالمهدي وبه عدة أوراق من الكوتشينة المقطوع نصفها، قال كتشنر وقتها للضباط الإنجليزي إن كل ورقة من هذه الأوراق تمثل ابناً من أبنائه.

ارتفع حاجب سلاطين، وتحركت شفاته بتلقائية وقد زاغ بصره وهو يقول:
- لدينا واحدة في المنزل معلقة بين ثنايا إطار مرآة الحائط.

فهز خير رأسه، وهو يقول:

- كما أخرج من الصندوق قلادة بها قفل وبداخلها حبة للنبتة الذهبية.

حملت ماليس في سلاطين وهي تقول:

- نعم، كيف لم أنتبه إلى ذلك! إنه مثله تمامًا صاحب الفلجة.

بينما اندهش شكري غير مستوعبٍ ما حدث، وقد كان عقل سلاطين يحاول ابتلاع حديث الشيخ خير، حيث أصابته الصدمة بجفافٍ في الحلق وتيه العقل، كان كمن يريد أن يبتلع صخرة، أصابت الجميع الدهشة ولم يستطع أحد أن ينطق بكلمة، نظروا جميعًا إلى السماء، لقد طرحت لهم فروضًا جديدة لا يستوعبها أهل الأرض، وكان هناك طبقات أخرى من أحداثها وألغازها أسقطتها السماء على الأرض، لقد صدق خير، إنه حديث من السماء، وبعدها التفت شكري إلى سلاطين ولكنه لم يجده، فربت على كتف خير وهو يقول:

- لقد هرب يا مولانا، أقصد لقد انطلق.

وحينها هب خير ونظر من أعلى إلى الطريق فرآه منطلقًا، فأشار له بالعلم الأخضر كي يعود، كما حاول أن يصيح إليه مناديًا لكنه لم ينصت، اختفى سلاطين وهو يتمتم:

- "التعايشي".

عاد سلاطين إلى منزله وقد اقتربت الساعة من الفجر بينما سمع أصوات نباح قرب حارة الصوفي، إنها الكلاب كالمعتاد لكنه رأى ما لم يتخيله، لقد كان هناك تجمع لأربعة من الرجال، وبصورة تلقائية شعر بالخطر، فاثنان منهما من الإنجليز، ودون مقدمات وفي سرعة أخرج أحدهم المسدس وأطلق النيران عليهم جميعًا بل إنه أنهى رصاصات مسدسه المتبقية على جسد رفيقه البريطاني، أعاد سلاطين النظر وشهق من هول الصدمة، فانتبه له الجندي البريطاني فوجه إليه المسدس المزود بكاتم الصوت وأطلق الرصاص مباشرة لكن الرصاصات كانت قد نفذت وصدر صوت فرقعة فارغة من المسدس، فأدرك سلاطين الأمر فانطلق نحوه، تفاجأ الجندي بسلاطين يقبض على قميصه فعاجله الجندي بقبضته، سقط سلاطين، وعند محاولة الجندي الهرب مدّ سلاطين قدمه، فتعثر الجندي وسقط على الأرض، ولكنه نهض في سرعة وانطلق دون أن يشعر بأن مسدسه الآخر "الميري" المعلق حول خصره قد سقط منه، التقطه سلاطين، ولاحظ أن المسدس محفور عليه اسم جورج، ولكنه فارغ الرصاصات، ثم توجه إلى الجثث الثلاث، لقد كان إحداها للرجل الطيب الشيخ "إدريس ود حسين ود السلطان" محمد الفضل" مالك محل العطارة في حارة الصوفي، وكان يقبض بيده على صندوق به زجاجات نادرة من العطور، وآخر اسمه "حسان" من بيت الزبير، ثم تفحص الجندي البريطاني القليل، وأخرج محفظته وأخذ يتفحصها حتى انتبه إلى صورة جمعت بين القاتل وامرأة وبينهما طفل صغير، لكن الغريب أن القليل كان يضع علامة "إكس" على صورة القاتل، لقد اتضح الأمر الآن، فتلك المرأة في غالب الأمر زوجة القاتل، وكان ينتقم لشرفه، ولكن ما علاقة السودانيين بالأمر! وفي لحظة سيطر اسم التعايشي على رأسه، أدرك أن أمامه وقتًا قصيرًا قبل أن يستيقظ والده أو عم أمين، فهو أول من يستيقظ بحارة

الصوفي، قبل أن يبدأ الديك الصياح، فاصطحب مسدس القاتل وقبعته والصورة والقلم الذي في جيب سترة القتل وانطلق إلى منزله، دخل إلى غرفته، وأخفى المسدس والصورة والقبعة، ثم أخرج ثلاث قبعات كتب على كل واحدة منها اسم أحد أبناء التعايشي:

- سالم" و"مسلم" و"سليم"، لقد أراد أن ينتقم من أبناء التعايشي، فهو الشخص الوحيد الذي استفاد من مقتل والده المهدي.

انقلب حال حارة الصوفي تمامًا، فقد صارت ثكنة عسكرية، إذ قُتل فيها منذ يومين ثلاثة رجال، أحدهم ضابط بريطاني، وآخر سوداني من بيت الزبير، والثالث من بيت الفضل، وها هي ذي التحقيقات تطال الجميع، فلم يعد هناك بيت في حارة الصوفي إلا واستدعته السلطات البريطانية، إلا أن الغريب أن سلطات التحقيق دائماً ما تلجأ إلى استدعاء الماضي في تساؤلاتها حول الجريمة، فأتارت الضغينة السابقة بين بيت الفضل وبيت الزبير، واتهمت شيلفوت بقتل حسان من بيت الزبير بادعاء الثأر، واتهمت عثمان من بيت الزبير بقتل الشيخ "إدريس ود حسين ود السلطان محمد الفضل" مالك محل العطارة في حارة الصوفي لذات السبب وهي العداوة السابقة بين البيتين، فقد كان من الواضح أن الأمر يتعدى الشق الجنائي في تلك الجريمة، حتى إن توماس راسل نفسه شعر بأمر غريب يتم في تلك التحقيقات فجميع ما يتم تسجيله من أقوال يتم تسريبها لأهل حارة الصوفي، أضحى الجميع يتهم الجميع!

قريباً محاولة اغتيال السلطان بساعات عاد سلاطين إلى المنزل فجراً بعد أن تغيب لعدة أيام، كان أمين يجافيه النوم فهو يعتقد أن سلاطين هو من قتل الرجال الثلاثة، بينما لم يلتفت الأخير إليه ولا إلى القبعات الثلاث الملقاة على فراشه المدون عليها أسماء أبناء التعايشي، وإنما اقتحم خزانة ملابسه وأخذ يلقي الثياب يميناً ويساراً، فاستيقظ الرجل الذي لم ينل قسطاً كافياً من النوم بعدما شعر بالحركة في غرفة سلاطين فانطلق وصرخ في وجهه:

- ماذا فعلت؟

لم يلتفت إليه سلاطين ولم ينتظر أمين إجابته، وتساءل على الفور:

- لماذا قتلت الرجال الثلاثة؟".

ارتسمت نظرة تعجب على وجه سلاطين والتزم الصمت، فبماذا يخبره؟ أيخبره بأنه فور علمه بالحقيقة أراد الانتقام من أبناء وأحفاد التعايشي، في رد فعل تلقائي دون تفكير؟ أيخبره بعتاب الشيخ خير وماليس له على هذا التصرف، فأبناء التعايشي ليسوا الأعداء الحقيقيين لنا، بل إن هناك من هم أولى بالانتقام كالبريطانيين ومعاونيهم في مصر؟ أيخبره بأن الشخص الوحيد في هذا العالم الذي كان يلجأ إليه في وقت ضعفه وقوته، أضحى غريباً عنه؟ أيقول له يا والدي أم يا عمّاه؟ التزم الصمت واستمر في البحث بخزانة ملابسه، حتى وجد ضالته، قبض عليها، وقد ضربت معالم الذهول ملامح أمين وهو يقول: "ماذا ستفعل يا مجنون؟ لقد أخفيت معالم جريمته وأخذت القبعات الثلاث حتى لا يعرف أحد ماذا فعلت!"، لكن سلاطين لم يلتفت حتى إليه، فقد قبض على المسدس الذي احتفظ به للجندي القاتل من نوع كولت عيار ٤٥ وانطلق.

كان ستورس يراقب التحقيقات من كئيب وهو راضٍ عن طريقة سيرها؛ فقد حققت الغرض منها بالفعل وضربت وحدة السودانين في مقتل وأصبح لا رجاء في اتحادهم، ومن ثم أمنت بريطانيا جانبهم في الحرب، حتى وقعت حادثة محاولة اغتيال السلطان حسين كامل، فكانت اللحظة التي عُرضت فيها القلادة على ستورس، هي اللحظة الفارقة، لم تكن رؤيته لها كأبي شخص، لقد كان ضمن فرقة الضباط الذين عادوا مع كتشنر في رحلته المنتصرة من السودان عندما انتصر على التعايشي في أم دبيكرات واستلم صندوق المهدي، واطلع على محتوياته، لقد كانت هناك قلادة مثل هذه، وكان يعلم قفلها السري، لم يتردد لحظة فعالج قفلها أسفل قبة مسجد المهدي، ليجد ما لم يتخيله، لقد أصيب بالذهول تمامًا، انطلق دون تردد بالقلادة التي اقتنصها الجندي إلى خزائنه وأخرج منها النبتة التي احتوتها زجاجته ووضعها بكل حرص على سطح مكتبه ثم أخرج النبتة من القلادة إلى جانب نبتته، وكانت المفاجأة، أنها النصف الثاني، لقد فزعت عيناه ثم أبصرتا لهيب الغضب في لحظة، لقد خدعه هذا الجندي، فالوعل لم يأكل النصف الثاني من النبتة كما ادعى، لقد ألقى له بنصف نبتة بينما هو احتفظ بأسرار المهدي، نعم لقد كانت تلك القلادة تخص المهدي، فإن كانت بها نبتة وضعها المهدي بالقلادة واحتفظ ذلك الجندي بنصفها، فإن له علاقة مباشرة بالمهدي الذي ضجت منه مضاجع الإمبراطورية وأقلق ملكتها، لطالما أرادوا معرفة أسرارهم، وفي لحظة أصبح الهدف الأهم لستورس هو القبض على هذا الجندي الذي خدعه أكثر من القبض على الشخصين اللذين شرعا في قتل السلطان، لقد أشارت التحقيقات إلى أن صاحب القلادة شاب أسمر له فلجة بين أسنانه ويرتدي قبعة بريطانية، وفي غضون ساعات تصدّر الصحف خبر مؤامرة محاولة قتل السلطان حسين كامل وأنها من تدبير تركيا ورجالها، وأن رجال البوليس قد تعرفوا على أحد المجرمين وهو "محمد شكري الكرداوي"، أما الشخص الثاني فلم يترك سوى قلادة وتصدرت صورة القلادة صفحات الجرائد بل كانت هي الأبرز في الخبر، بعد عدة أيام ورد إلى ستورس إشارة تليفونية تفيد الآتي:

"لقد رأيت صاحب القلادة من قبل، إنه شاب أسمر طويل، شعره مجعد، له فلج بين أسنانه، يتعامل مع مطبعة بولاق بالقاهرة، وأرجح أن يكون موظف حكومة، تحياتي المخلص "توماس إدوارد لورانس".

في لحظات من ورود تلك المعلومة من رجل ستورس الأول "لورانس العرب" انطلق ستورس بنفسه إلى مقر الوقائع المصرية واستجوب العمال بها حتى تعرف أحدهم من خلال هذا الوصف على سلاطين وأخبره أنه يعمل في الوقائع المصرية، وهناك أدرك أن سلاطين قد انقطع عن العمل من عدة أيام فأيقن أنه أمام الشخص المطلوب، اقتحم حارة الصوفي قبل صلاة العشاء مباشرة، واندفع نحو منزل سلاطين، طرقت الباب بقوة حتى كادوا يحطمونه، ارتعب أمين من هذا الطرق الجنوني، وفتح الباب، وأصبح في مواجهة مباشرة مع ستورس بعد ثلاثين عامًا غيرت الكثير

والكثير من ملامح الرجلين، أدركه أمين عندما رآه فقد سمع اسمه يتردد في الأيام السابقة وأنه يتابع التحقيقات من كذب.

- أين سلاطين؟

- ليس هنا.

- نحن نريده.

- لماذا؟

عند تلك اللحظة صفع ستورس أمين على وجهه وهو يقول:

- كيف تجرؤ على السؤال، إنه قاتل!

حاول أمين أن يرد الصفحة على وجه ستورس، لكن الجنود انقضوا عليه وقيدوا حركته، وهو يصرخ:

- أيها الكلب الإنجليزي، طول عمرك معندكش ضمير وطماع!

- طول عمري! طول عمري!

كرر ستورس الجملة أكثر من مرة وابتسم وهو يقول:

- أنت تعرفني إذاً.

اقترب ستورس من أمين المقيدة يده خلف ظهره، فقبض ستورس على ذقن أمين وجذبه تجاهه والرجل يكاد يصرخ وحببات العرق بدأت تتساقط من جبهته، أصبح وجه ستورس أمام وجه أمين مباشرة، أخذ يتفحص وجهه، حتى بدأت ابتسامة صغيرة يتسع نطاقها، ثم تحولت إلى ضحكة هستيرية لا يعلم الجنود والضباط أي مبرر لها، حتى إن بعضهم خوفاً من بطش الرجل أخذ يضحك دون أن يعلم سبب هذا الهراء، وبطريقة مسرحية انقبض جسد ستورس لأسفل وكأنه يستعد لأن يقفز معبراً عن انتصاره وهو يقول في سعادة مفرطة:

- أنا في حلم، إنه أنت أيها الكلب، أنت من أعطاني نصف النبتة.

- ألم تأخذ النبتة، ماذا تريد الآن؟

- إذاً هو أنت؟

- نعم أنا.

صفعه ستورس للمرة الثانية والثالثة والرابعة والخامسة حتى أنهكت قواه فالتقط أنفاسه قبيل أن يسأله:

- قتلت من؟

بدأت الدماء تسيل من وجه أمين، وأصبح منهك القوى لا يقوى على النهوض، ولكنه أجاب وأنفاسه متقطعة:

- سلاطين لم يقتل أحداً، بل أنا من قتل الضابط الإنجليزي.

ابتسم ستورس وهو يقول:

- شكرًا لك، سنعتقلك فلا تقلق، ولكننا نريد أبو فلجة.

- لا أعرف مكانه.

- هل هو ابن المهدي؟

ارتسمت علامات التعجب على وجه أمين فهو بالفعل لا يعرف هذه المعلومة، فصرخ قائلاً:

- ماذا تقول؟! إنه ابني؟

انقضّ عليه ستورس وأخذ يكيل له الصفعات وهو يصرخ:

- لقد أضعت عليّ سنوات أيها الكلب، أخفيت ما لا تعلم قيمته.

استمر في كيل اللكمات للرجل حتى غاب عن الوعي، فأصدر أوامره باعتقاله واصطحابه إلى مقر مكتبه لاستكمال التحقيق معه، والتقاط الصور لكل أركان الشقة، وهو يشير إلى كل شيء، وفي التفاتة منه رأى مرآة الحائط والمعلق بين ثنايا إطارها نصف ورقة الكوتشينة، اختطفها وضرب يده على فخذه في غضب وهو يقول: "إنه هو بلا شك"، اصطحب الجنود عم أمين للأسفل وقد ارتاع جميع أهل الحارة من منظر الرجل الذي تأذى كثيرًا من الضرب، ذهب أمين برفقتهم واختفى بعدها. أبقى ستورس جنديًا على باب الشقة وفي غضون ساعات تكالب الصحفيون أمامها؛ في محاولة لالتقاط بعض صور مكان المجرم الذي حاول اغتيال السلطان.

في غضون ساعات من اختفاء الرجل كانت قمر في حارة الصوفي تحاول أن تتلمس الأخبار عن والدها أو حبيبها سلاطين، لكنها تفاجأت باعتقال عم أمين، هو الآخر، فعادت أدرجها لتخبر "خير"، تفاجأ الرجل بما حدث بينما أثار الشك قلب ماليس، وأدركت أن الأمر قد لا يتعلق بمسألة اغتيال السلطان فقط، في تلك اللحظة شعر الجميع بالمسؤولية وأن عليهم جميعًا التحرك لا سيما مع اختفاء سلاطين وشكري، فانطلقت ماليس إلى مقر جريدتها بالقاهرة للوقوف على الأمر، بينما انطلق خير إلى الشخص الوحيد الذي اعتقد في قدرته على مساعدته الضابط عبد الله النجمي، بالفعل انطلق إليه وهو يحدوه الأمل في مساعدته، استقبله الرجل بكل هدوء وفور ذكر اسم أمين هز الرجل رأسه بأسف، وهو يقول:

- أعلم كل شيء.

- إنه بريء.

- أعلم يا شيخنا، لقد رأيت كل شيء، لم يكن أمين هو الذي حاول قتل السلطان بل كان ابنه سلاطين، أليس هو صاحب القبعة؟ لقد رأيتهم ضمن المرشحين بالسلطان أو هكذا كان يدّعي، وقت أن رأيتهم وانتبهت إلى وجوده، لم يكن ينظر إلى السلطان قط بل كان ينظر إلى شخص آخر اعتقد أنه صاحب الجلباب، لقد هز رأسه له في أثناء مرور السلطان ثم أخرج مسدسه، لقد كانت مؤامرة بالفعل على اغتيال السلطان يا شيخنا، أعلم أن أمين بريء، ولكن ابنه سلاطين هو من فعلها.

- يا ولدي أتدري من هذا الشاب؟
- لا أعلم من هو ولكن أعلم ماذا أصبح، لقد صار مجرمًا!
- إنه ابن المهدي.

انطلقت ماليس كي تتأكد من أمر في غاية الخطورة، فهل تبحث القوات البريطانية عن سلاطين باعتباره متهماً بمحاولة قتل السلطان أم على أنه ابن المهدي فالأمر شتان في المعالجة، لم يستغرق الأمر منها سوى دقائق فقد قابلت على باب الجريدة أحد أصدقائها الصحفيين، وتحدثت إليه فلم يقدم لها أي جديد، ولكنه أخبرها أنه سُمح لهم بالتقاط بعض الصور الفوتوغرافية، وهو يقوم بتحميزها بالفعل، انتظرت معه ماليس لحين الانتهاء من عملية تحميض الصور، ثم بدأت بمطالعتها وعند إحداها بدأت حدقتها تضيقان وتقرب الصورة إلى عينيها قدر المستطاع ثم انطلقت دون كلمة واحدة وهي تتمتم:

- لقد أدركوا الحقيقة.

لم تدرك قمر للحظة واحدة أنها كانت المحرك الأساسي للعديد من الأحداث في الفترة الأخيرة، ولكنها أدركت أن جميع من تحب يختفون يوماً بعد يوم، فوالدها قد اختفى ثم سلاطين وأمين حتى الشيخ شكري، كانت تريد أن تقدم يد العون ولكن كيف؟ حركها شعور داخلي أن جميع من له علاقة بالمقابر قد اختفى، لذا لم تشعر إلا وهي على أبواب المقابر تطرق عشة مرسي وعفيفة عليها تجد أحدهما هناك، حتى هذه اللحظة لم تكن تدرك أنها لجأت إلى العدو الحقيقي لها وأكثر شخص يمقتها، استقبلتها عفيفة ونار الحقد والغيرة تضرب أركان جسدها، لا تستطيع أن يفارق ذاكرتها كيف أنها حاولت غواية شكري عندما التصقت به، إلا أنه فرَّ في لحظة وانطلق من أمامها كما الذي مسّه جنّ، أدركت وقتها عفيفة أن قمر تسدد لها اللكمات عن بُعد، انتصرت عليها، ونالت من كرامتها، وها هي الآن تأتي إليها طالبة العون تبحث عن سلاطين وشكري، تبحث عن حبيبها، لقد دخلت عش الثعابين، وكالمعتاد تظاهرت بحسن استقبالها واحتضنتها وقبّلتها وقدمت إليها بعض الشاي الذي أضافت إليه نبتة النعناع والقرنفل، وكانت دقائق معدودة وصارت قمر تهذي، لقد انتصرت عفيفة عليها وأضافت إلى الشاي نبتة الداتورة، فأذهبت عقلها، وارتخى جسدها الذي صار رفيق القبر المجاور لعشتها، والذي اختلف عليه الرجلان من قبل، دفعتها إليه، وأغلقت عليه وهي تبتسم بكل هدوء، لقد تخلصت من غريمها الأولى وانتصرت لكرامتها.

أضحى الجميع مترنحًا بينما طال صمت "خير" وانقطع عن حانوته، واختفت قمر، ومن قبلها سلاطين وشكري واعتقل أمين، غاب الجميع عن الوعي وكأنهم في سبات عميق، أضحوا في حاجة ماسّة إلى شعاع من الضوء.

لم تكن شمس مُلمة بكل هذه التفاصيل لكنها كانت فتاة ذكية تحمل نقاء ووضوح الشمس، شعرت أن الجميع حولها يحتاج إلى الدعم إلى الاستفاقة بعيدًا عن الأعلام والانتماءات، تذكرت حديث والدها بأن انتماء الشخص إلى العلم كما انتماء قطعة القماش إلى الصاري، فرغم ما يحمله العلم من معانٍ للانتماء فالصاري قد يرتدي قطعة قماش جديدة وتتغير معه معالم الدولة، إن الهوية في الحب الصادق للمكان، والانتماء الحقيقي إلى معالمه وأشخاصه وأحداثه القاسية قبل السعيدة. كان يقول لكل من يعرفه إن الانتماء إلى الوطن بالقلوب التي تحمل راية خضراء تدعو للسلام تشعر معها بالراحة كأنها حديقة، لذا كانت وسيلته في النداء دائمًا علمًا أخضر، لذا قررت أن تضع علمًا أخضر كبيرًا أعلى سقيفة السطح بل انطلقت ووضعت آخر أعلى سطح الشيخ نمر بحارة الصوفي، لا يحمل نجمة ولا ثلاث نجوم بل لونًا أخضر فقط، لون السلام، لون المحبة، كانت كمن ترسل رسالة إلى الغائبين فارتباط الشمس باللون الأخضر لا يحمل سوى معنى واحد الخضرة والنبات، كما قال خير ولم يكن هناك سوى مكان واحد قصده الجميع وترامى إلى مسامعها اسمه ويحمل اللون الأخضر: "حديقة الأزبكية"، كانت تدرك أن سلاطين لا يستطيع الابتعاد ولسبب غير معروف، كانت تدرك أن شكري سيدرك المغزى.

في ذات اليوم عادت ماليس وأخبرت "خير" بما رأته، لقد قام زميلها بتصوير صالة شقة أمين وظهر من خلالها الإطار الذي يحوي المرأة ولكنه كان خاليًا، لقد التفتوا إلى ورقة الكوتشينة أيضًا، وهذا يؤكد أنهم وقفوا على هوية سلاطين؛ لأنها دليل على أبناء المهدي.
قال خير:

- لم يكن هناك داعٍ إلى كل هذا يا ماليس، إن رونالد ستورس كان أحد الجنود المرافقين لكشترن ورأى الصندوق.

كانت ماليس تتحدث إليه وإلى جانبه شمس، لقد أدركت أن خير أخبرها بكل شيء، فلم يبقَ هناك أحد بعد اختفاء الجميع، لذا يجب أن يكمل أحدهم الرسالة.
وفي حركة مفاجئة وضعت ماليس خطاب شكري على المائدة، بعدما أخذته من غرفته بعد شجاره مع سلاطين، ثم قالت بكل حماس:

- إنه آخر أمل لنا في تخفيف الضغط الذي تمارسه بريطانيا، كل تلك المؤامرات تفعلها فقط لتشتيت فكرة الوحدة أو القضاء على أي خاطرة لثورة ضدها من السودانيين لتؤمّن جهة الجنوب وهي في حرب طاحنة، إن الأسطول الإنجليزي منشغل بإسقاط ثغور جدة وينبع وغيرها من موانئ

الحجاز في قتاله ضد الأتراك بالجهة الشرقية ودعمًا لثورة الشريف حسين، إن أكثر مخاوف بريطانيا، هو الموقف المترنح لإيطاليا، لذا فإن هذا الخطاب هو الورقة الراجعة لنا، سنشير فيه إلى اتفاق الوطنيين المصريين مع السنوسي على الثورة العربية ضد بريطانيا في الغرب لتشتيت جهودها، فهذا قد يصرف ذهنها مؤقتًا عن مخططاتها بحارة الصوفي وحملة الاعتقالات التي تقوم بها، بل وسيضعف من قدرتها في الغرب".

- وكيف سنرسل الخطاب؟

- مرسي.

- من مرسي؟

- إنه عامل المقابر، فهو الوحيد الذي لن يشك فيه الإنجليز، وهو القادر على الحصول على نسخة الخطاب من شكري بصورة طبيعية، فقد كان يقيم معه بالمقابر، إنه سبب منطقي يجعل الإنجليز تصدقه.

- نعم لقد تذكرته، لكن شكري قال إنه ترك المقابر.

- نعم، ولكن هناك من يستطيع الوصول إليه؟

- من؟

- توفيق عامل بنسيون "لارا"، سأصل إليه وسأعطيه النقود.

- سيخاف.

- علينا المحاولة.

وبالفعل انطلقت ماليس إلى الإسكندرية وتركت العلم الأخضر يرفرف في دعوة مباشرة لسلاطين وشكري حتى بلغت البنسيون، وبالفعل تحدثت إلى توفيق الذي كان معجبًا بقدرات شكري ويخشى عليه، فأفنته بأنها تريد مقابلة شكري وأنها لا تعلم له طريقًا وقد علمت بأنه توسط له في العمل.

أخبرها توفيق مباشرة بأنه يعمل بمقابر الشافعي، قالت وبتلقائية شديدة:

- نعم نعم أدرك هذا ولكن شكري ترك المقابر، وانتقل إلى مكان آخر لا يعلمه سوى مرسي شقيقك وهو في إجازة على ما أعتقد ببلدته.

لم يكن توفيق يعلم بأن مرسي متورط في أي شيء، فلم يشر إليه أحد حتى الآن في حادثة القنبلة، كما أنه يعلم ماليس ومدى كراهيتها للإنجليز وأنها لا يمكن أن تكون أبدًا جاسوسة لهم، لا سيما أن مرسي لم يتهمه أحد بشيء حتى هذه اللحظة، أرشدها بالفعل على بلدته، ومكانها بالتحديد، فانطلقت إليها يحدها الأمل في استجابة مرسي لها، ولكن خاب رجاؤها عندما تحدثت إليه، لقد كان همه الأول أن يختفي بعيدًا عن الأنظار، ولكن عندما ذكرت له مغامرات عفيفة، عادت الحمرة إلى جبهته، حاول أن يُنكر، ولكنها أرشدته إلى علامة على صحة حديثها، عندما قالت له:

- إنك تضع مسدسك في خزانة الأريكة، لقد قص لي شكري عندما حاولت عفيفة غوايته، لقد سرقت دفتر المقابر منك، ولم تكن بمفردها قط، فكما حاولت إغواء شكري أرادت إغواء الجميع.
صرخ مرسي وكأنها ضغطت على جرح أراد أن يتجاهله، صرخ بأعلى صوته:
- كفااالك!

وفي محاولة أخيرة حاولت أن تستنهض بها رجولته ووطنيته، أشارت إلى الخطاب وورقة صغيرة دونت عليها اسم رونالد ستورس وهي تقول إنه الأمل الأخير في تخفيف الضغط عن شكري وسلاطين.

- من سلاطين؟

- إنه شقيق شكري.

ارتقى مرسي على الأريكة فقد كان حديثها عن عفيفة كما الرصاصة التي اخترقت قلبه:
- ماذا تريدان بالتحديد؟

- رونالد ستورس، تذهب إليه وتقول إن هذا الخطاب وجدته أو سرقتة من شكري في أثناء إقامته بالمقابر، إنه الشيء الوحيد المنطقي الذي يقبله ستورس وأبلغه أنك تنتظر مكافأة نظير ذلك.
هز مرسي رأسه وقد غابت عيناه عن الوعي وهو يقول:
- لك ذلك".

- أرجوك في أقصى سرعة.

- غدًا سأكون هناك.

عادت ماليس وقد استجاب سلاطين وشكري للنداء، لقد رأوا العلم الأخضر فأدركوا الرسالة، فقد ارتدى شكري رداء امرأة أما سلاطين ارتدى جبة وجلبابًا صعيديًا لأن معالم وجهه لم تُنشر بالصحف بعكس شكري الذي افتضحت معالمه، وعلى مدار يومين، كان الرفيقان يجوبان حول حارة الصوفي وحارة خير وحديقة الأزبكية، كلٌّ في طريقه لا يعلم شيئًا عن الآخر، حتى استوقفت امرأة سلاطين بالحديقة، خشي في بداية الأمر، حتى أزالته اليشمك من على وجهها فانتضح أنها شكري، تقمص سلاطين دور زوج المرأة وانطلقا إلى "خير"، وهناك أخبرتهما ماليس وشمس بكل شيء، أن أمين اعتقل وأن الأنباء تتردد بمقتله، ثم أخبرتهما بأمر مرسي وأن عليهما التصرف سريعًا والتواصل مع رجال محمد فريد لاستغلال تصرف إنجلترا إن انطلت عليها خطة الخطاب، أصابت الصدمة سلاطين فوالده أمين في خطر وكان عليه أن يحاول قدر المستطاع إنقاذ ما يمكن إنقاذه، وليست هناك خطة سوى ما تطرحه ماليس وخير، لقد وثق بهما، كما وثق بمخططهما بشأن اغتيال السلطان، عندما صححا رأيه وفكره وخطأه عند محاولته للانتقام بتوريط أبناء التعايشي بجريمة الجثث الثلاث، وأقنعوه بأن أبناء التعايشي ليس هم أعداء المهدي، فتساءل:
- وهل سينفذ مرسي وعده؟ لقد صار خطرًا جديدًا".

أجابته ما ليس:

- لا تقلقوا فقد أخبرته بأكثر ما يؤلم.

- ماذا؟

- الخيانة، أخبرته بخيانة زوجته.

تساءل شكري:

- وأين قمر؟

التفت الرجلان، سلاطين وشكري لينهشا الفضاء المحيط بهما بحثاً عن طلةٍ لقمر، شعر شكري ببعض الحرج أنهته شمس عندما قالت:

- لقد اختفت منذ أمس، لقد ذهبت للبحث عنها بالحارة، ولكن لا أثر لها، لقد اختفت.

تساءل شكري:

- هل ذهبت إلى المقابر؟

أجابت شمس:

- لا أدري.

لقد شعر الرجلان بالقلق، حيث اختفت من اجتماعاً على حبها وكانت سبباً للصراع بينهما، كان عليهما أن يبحثا عنها، ولكن كيف وهما مطاردان؟! هب شكري وهو ما زال على زيّه النسائي وقال:

- سأذهب إلى المقابر.

فنهض سلاطين لمرافقته ولكن شكري منعه وهو يقول:

- اتركني وحدي ولا تخش، أنا لا أبحث عنها هناك، ولكني أخشى عليها من عفيفة زوجة مرسى، إنها الخطر الأكبر على قمر وهي لا تدري ذلك، سأحتال عليها لأعلم مكانها إن كانت هناك.

شعر سلاطين ببعض القلق ولكن شكري صار رقيقاً للكفاح وصديقاً وشقيقاً. انطلق شكري إلى المقابر بحثاً عن قمر، بلغ المقابر في أكثر لحظة مخادعة له، فقد بلغها ومرسى ينفذ وعده بالفعل، ولكن مرسى أضفى بعض اللمسات على الخطة فقد انطلق إلى المقابر، ليقتص لنفسه أولاً، انطلق إلى غرفته وتنصت إليها حتى سمع ما توقعه واشتم روائح الخيانة، ضرب الباب في عنف في محاولة لإسقاطه لكنه فشل في المرة الأولى، وفزعت عفيفة، وهرب من كان يرافقها من النافذة، اخترق مرسى الغرفة، وأحاطها بكل الكراهية والانتقام لشرفه، أطبق بقبضتيه على عنقها، لم يهتز لرجائها ودموعها أو صرخاتها.

لم ترتجف يده ولم يهتز قلبه وهو يجذبها من قدميها وهي عارية تدنس تراب مقابر الشافعي بجسدها، لم يخطر بعقله سوى مكان واحد، أقرب قبر إلى الغرفة، ذات القبر الذي ثار عليه

الخلافة.

كان شكري يشهد كل شيء من بعيد وعندما رأى جسد عفيفة عاريًا انقبض قلبه وأغلق عينيه، لقد أراد أن يستر تلك المرأة التي أبت أن تستر جسدها في حياتها، لم يرد أن يرى المزيد فقد اطمأن قلبه على قمر، وأنه لا خوف عليها من عفيفة، لقد صارت في التراب، فانطلق عائداً إلى منزل خير.

أزاح مرسي غطاء المقبرة، لتزداد مفاجأته، لقد وجد المسكينة قمر وقد أصابها ما أصابها، لا يعرف إن كانت حية أم لا؟ فملابسها وحالتها تقولان إنها أُلقيت في المقبرة منذ ساعات، لم تُكفَّن، وضع يده على صدرها فشعر ببعض الاهتزاز، إنها حية، أخرجها من القبر وحملها إلى غرفته، ألقى عفيفة بالقبر وانطلق في هدوء، كان الوقت بعد الفجر بقليل، حيث شعر ببعض الإجهاد، فابتعد عن القبر والغرفة عدة خطوات، ثم جلس ليلتقط أنفاسه، وفي لحظة غريبة أدرك حكمة السنين، أدرك العظة التي كانت أمامه دائماً ولكنه لم ينتبه إليها، فها هم أولاء السلاطين يلتحفون التراب، التفت بعينيه ناحية قبر إبراهيم بن محمد علي ومقابر سلاطين السودان من حوله، والتفت بعينيه ناحية قبر عفيفة وهو يقول:

- وها هي ذي المتعة صارت طعاماً للديدان!

ترك الوقت يمضي وهو على حاله، لم تهدأ أنفاسه قط، وعندما شعر أن الوقت قد حان للرحيل، نظر إلى الغرفة والقبر وهو يتمتم: "لقد فعلت ما عليّ"، وانطلق.

بلغ مقر المخابرات، وبعد عناء أتاحوا له المقابلة مع رونالد ستورس، بعدما أخذ يتحدث إلى أحد الضباط ليقنعه بأهمية ما لديه، اقتنع الضابط الإنجليزي عندما سمع اسم محمد فريد، ليتقابل مع رأس الأفعى ستورس، أخرج الخطاب ونفذ ما قالتها ماليس وطلب المقابل، وبالفعل ناله على الفور فقد اصطحبه أحد الجنود إلى الغرفات المظلمة بقبو المبنى، كان يتوقع الأمر فلم يقاوم، إنه جزاء السنين، لكنه لم يكن بمفرده فقد سمع في الظلام صوتاً ضعيفاً، حاول مرسي أن يستبينه فاقتراب منه، إنه الرجل الذي تسبب في كل هذا منذ البداية وهو يقول في خفوت: "قمر.. قمر"، إنه الشيخ "نمر"، عادت الروح إلى مرسي وانطلق نحوه وهو يهز كتفه ويقول: "أنقذ ابنتك، إنها تصارع الموت بالمقابر، إنها في عشتي"، لم يقوَ "نمر" على قول أي شيء، بل حاول أن يصارع الضعف والوهن وتعلّق بالباب وبكل ما تبقى لديه من قوة ضرب بقبضاته عليه وهو ينادي على قمر.

تنامى إلى جنود الحراسة صوت الرجل، فنهزه أحدهم، فزداد صراخه، طالباً إنقاذ ابنته، فهي تموت بمقابر الشافعي، شعر أحدهم بجديته حديثه فهو رغم وهن جسده أخذ يصرخ بقوة، فأخبر أحد الضباط الإنجليزي وبدوره أخبر رونالد ستورس، واغتبط بما سمعه، فقد نجح تدبيره عندما ألقى بمرسي إلى جانب نمر، كان يريد أن يلقيه إلى جانب أمين ليعرف المزيد، لكن الرجل لم يتحمل ما أصابه من تعذيب وتوفي منذ ساعات، انتقلت قوة من الجنود البريطانيين إلى المقابر فوجدوا الفتاة

لا تزال حية، ولكن كانت أنباء الصحف غير ذلك في اليوم التالي، فتصدّر عناوين الصحف خبر:
"منفذو عملية اغتيال السلطان يقتلون سودانية بمقابر الشافعي".
تصفح ستورس الخبر وهو يبتسم، إن السماء تقذف له بهداياها.

"هل يعتقدون أنهم قادرون على زعزعة ما خططنا له لسنوات؟! إن ما يحيون به ويعتبرونه بديهية من البديهيات هو من صنع أيدينا، كل شيء، كل شيء، جمعناهم في حارة واحدة رغم ما بينهم من عداوات كافية لتشعل نار الفتنة بينهم دائمًا، فلا يقوم لهم عزم، ولا وحدة، حارة الصوفي التي جمعناهم فيها لم تكن قط مصادفة، إنها المكان الذي يحمل ذات اسم المنطقة التي ينتمي إليها نمر الكبير، الذي قتل إسماعيل بن محمد علي وحرقه هو ورجاله في السودان، لنزرع الضغينة بين السودانيين والمصريين، إننا نذكرهم بالخلاف والفرقة، حتى إن تمثال شقيقه إبراهيم يطل على الحارة كأنه يراقبهم، وحارة المهدي أمام فندق شبرد لنذكر ضيوفه من كل الجنسيات -وهم يرتشفون الشاي الإنجليزي بشرفاته- بالمجازر التي قام بها ويتذكرون قتله لجوردون في السادس والعشرين من يناير، ليكون موعدًا للانتقام، أنا متأكد أنه سيحدث عما قريب، الأزبكية أشهر أحياء مصر اخترقها الفن في كل دروبه ويأتيها من جميع الجنسيات، تحمل ذات اسم أحد الأبواب الذي تم اختراقه في حصون السودان عند غزو المهدي للخرطوم، حتى بناء خزان أسوان كان هدفه في الأساس إثارة الضغينة بين المصريين والنوبيين المنتميين إلى قبائل مصر والسودان عند تهجيرهم خلف السد.

لقد خططنا لكل شيء، حتى تلك الجريمة المصطنعة في حارة الصوفي، نحن من أوعدنا إلى الجندي جورج في قتل زميله الخائن، لقد كان بالفعل يخونه مع زوجته، ما فعلناه أننا اختلقنا مسألة بيع بين إدريس الفضل من بيت الفضل وحسان من بيت الزبير والجندي الخائن القتل، وهيئنا الظروف ليلتقوا في هذا التوقيت، ليأتي جورج وينهي عليهم جميعًا، ماذا إن ضحينا بأحد رجالنا لأهداف سامية؟! لقد أخبرت سيدي كتشنر الذي يضرب عباب البحر الآن في طريقه للتفاوض مع روسيا، ووعدته بالحفاظ على الأمر لحين عودته.

يجب أن تعود الفتنة لتتأجج بينهم ولن نعطيهم الفرصة ليتحدوا ضدنا، يجب أن نذكرهم دائمًا بسلطينهم وعروشهم وخلافاتهم في السودان، إنهم كما الشوكة في ظهورنا إن اتحدوا. لن يستطيع أحد أن يوحدهم، إلا ذلك المدعو سلاطين، أردنا أن نذكرهم بسلطينهم وعروشهم كسبب للفرقة، ليأتي لنا رجل يحمل ذات الاسم ليكون رمزًا يمكن أن يوحدهم، يجب القضاء عليه بأي شكل!".

قالها رونالد وقد ضرب بالسكين على سطح مكتبه لتخترق أعز ما يملك، النبتة الذهبية.

قبل ذلك بساعات كان شكري وسلاطين يراقبان من بعيد تنفيذ مرسى لوعده، كانا يراقبان مدخل بناية ستورس، وبالفعل تأكدًا من دخول مرسى، وترقبًا خروجه لكنه لم يخرج، اتجها إلى بولاق

ومر شكري على شمس ليلاً متنكراً بزيه النسائي فطمأنته بحديث النجومي عن قمر، هربا إلى منطقة المقطم وقضيا الليل بأحد كهوف الجبل، يجافيهما النوم، يترقبان القادم.

وفي صباح اليوم التالي تصدرت عناوين الصحف صورة قمر القتيلة، لقد دبر الإنجليز المؤامرة، لم تأخذهم شفقة بها بل تركوها لتموت ثم أجهزوا عليها ذبحاً، أرادوا أن يظهرها كل ما ينتمي إلى الدولة العثمانية في صورة المجرم الحقيير ويقضوا على أي تعاطف معهم لا سيما من السودانيين، لقد كان "نمر" يصرخ: "ابنتي حية بالمقابر"، وقد استمع العديد من الجنود المصريين لهذا الصراخ بل وأبلغ بعضهم الضابط عبد الله النجومي، الذي طمأن بعض أهالي حارة الصوفي ليلاً على قمر، ليتفاجأ الجميع في اليوم التالي بصورتها وهي قتيلة بالمقابر!

ضربت الصدمة أركان شكري وسلاطين، أصبح مصيرهما واحداً كما كان قلباهما يجتمعان على واحدة، لم يكن هناك مجال لأي حديث، لقد سيطرت مشاعر الانتقام والشرف على الجميع، لقد استحل الإنجليز كل شيء، إن الأمر كله مدير بفعل رأس الأفعى ستورس، فلم يكن هناك سوى قرار واحد.. الانتقام، انطلقا إلى عشة شكري بالمقابر، وفي أحد أركان غرفته حفر في التراب ليخرج منها بعض الأدوات البسيطة ولفافة بها ما يشبه البارود، استغرق الأمر عدة ساعات حتى جهز ما يشبه قنبلة الشيخ "نمر"، ثم انطلقا إلى مقر المخابرات بالفعل، وانتظرا ظهور ستورس، ولكن قبل ذلك، دلف إلى البناية الشخص القادر على قلب الطاولة، إنه الجندي جورج القاتل، كاد سلاطين يركض وراءه ويكشف تستره لولا أن قبض عليه شكري متسائلاً:

- ما الأمر؟

أجابه سلاطين:

- إنه القاتل الذي أحتفظ بمسدسه وصورته، إنه قاتل الجثث الثلاث بالحارة".

هز شكري رأسه وهو يقول:

- فلننتظر.

وبعد ساعة خرج جورج، هنا قبض شكري على يد سلاطين وهو ينظر إليه ويتأمل ملامحه كأنه يراه لأول مرة ثم قال:

- إنها لحظة الوداع يا أخي، لا تترك هذا الرجل، إنه دليل براءة الجميع، ألقه بحارة الصوفي ودع الجميع يعرف الحقيقة.

- وأنت؟

- سأنتظر ستورس وألقي القنبلة.

- ولكن...

- ليس هناك وقت، أنت شقيقي، تذكر ذلك دائماً.

احتضن سلاطين شكري قبل أن ينطلق خلف جورج، ترقبه حتى دلف إلى إحدى الحانات

وقضى يومه هناك وخرج سكيرًا لا يقوى على المشي غير مدركٍ لما حوله، كان كمن يريد أن ينسى جريمته فهرب إلى عالم آخر، اقترب منه سلاطين واصطنع أنه يساعده والرجل غير واعٍ لما يحدث، اصطنع سلاطين أنه يعرض عليه قضاء وقت ممتع دون مقابل مع إحدى الباغيات بالأزبكية أشهر الأماكن لممارسة البغاء، رحب الرجل وربت على كتف سلاطين، الذي استوقف حنطورًا وانطلقوا به إلى حارة الصوفي، وكان جورج كمن فقد الوعي، بلغها سلاطين وهو يسند جورج بيديه، ومع كل خطوة يخطوها سلاطين بحارة الصوفي، يظهر سكانها الذين وصلتهم الأخبار من النجومي بحقيقة أن اعتقال أمين وموته كان سببه الحقيقي إخفاءه لهذا الكنز، إخفاءه لسلطان سلاطين السودان وخليفة المهدي، كان الجميع ينظر إليه كمن يروونه لأول مرة، إنه بالفعل يشبهه، إنه صاحب الفلجة.

بلغ سلاطين قلب الحارة، ألقى جورج على الأرض بعد أن جرده من سلاحه، وبصوت جهوري صرخ سلاطين وهو يشير إلى الجندي:

- إنه دليل براءتكم جميعًا، هذا من قتل الشيخ "إدريس بن حسين" و"حسان"، إنه من قتل البريطاني ويتهمونكم على فعلته، لقد قتلوا قمر وقتلوا أبي ومن قبلهما أمي، إلى متى تنتظرون؟! ثم التف حول نفسه كمن أراد أن يرى جوانب مُلكه في بيوت كل سلاطين السودان بالحارة وهو يصرخ:

- أنا ابن المهدي.

انتبه الجندي المكلف بحراسة شقة أمين للجندي جورج الملقى على الأرض، فانطلق نحوه ولكنه تفاجأ بأن أهالي الحارة يحيطون بسلاطين ويحملون أسلحتهم، لقد تحقق أكبر مخاوف ستورس واتحد الجميع، انطلق الجندي مذعورًا خارج الحارة، بينما ربّت الجميع على كتف سلاطين وطلبوا منه الرحيل فورًا قبل مجيء الجنود البريطانيين، نظر إليهم في رجاء وهو يقول:

- لا تتركوا حق قمر، يجب أن توارى بمقابرنا. وانطلق.

كان هذا مشهد الوداع للجميع، انطلق أهالي حارة الصوفي بطريقة تلقائية غريبة إلى مقابر الشافعي، وكأنهم ينتظرون مجيء جثة قمر وأمين إليهم، ولكنهم اجتمعوا على أخطر سلاح لهم، لقد عقدوا النية وأضرموا النيران حول قبور موتاهم، حمل بعضهم البخور أمام قبر السلطان نمر، وشهق بعضهم، لقد كانوا مصممين على الانتقام بأقوى سلاح يعتقدون فيه ويمتلكونه، لقد أطلق بعضهم الدعاء وأطلق بعضهم الآخر شهقات السحر على دمية طينية كأنها العدو، وأدى بعضهم نداء كثولو ليستيقظ المارد الجالس تحت الماء عندما علموا بوجود كتشنر على متن سفينة، شعروا بأنهم أدوا جل قواهم وسعيهم لا سيما عندما علموا من بعد بغرق كتشنر.

أما شكري فقد هرب للإسكندرية بعدما ألقى القنبلة فور رؤيته رونالد ستورس، لا يعلم، أمات

الرجل أم لا؟ كان يأمل في الهروب عبر ليبيا، ومنها إلى إسطنبول، كان يعتقد أن مستقبله وأمانه وكفاحه هناك، اقتنص بعض الدقائق على شاطئها ليرى الموجة الوحيدة التي لم يستطع أن يضع وصفًا لحركتها، الموجة المنكسرة.

بينما هرب سلاطين إلى الماضي إلى حيث سلطان والده، لقد أراد أن يذهب إلى قبر أمه قبل أن يبحث عن آثار سلطان والده في السودان، انطلق متخفيًا ومرتديًا العمامة وأرعى طرفها على وجهه حتى لا ينتبه إليه أحد، بلغ أحد مرافئ ضفاف النيل ليستقل أحد المراكب المتجهة للجنوب حيث الحدود مع السودان، تمنى لو صار قطرة ماء تذوب في ماء النيل لتصل إلى الجنوب في سرعة، رغم أنه يتجه ضد تيار النيل المتجه إلى الشمال فإنه شعر بترحابه الشديد عندما وجد ماءه فائضًا وكأنه يحثه للعودة إلى الجنوب، لقد حمل هذا الشريان من قبل أحلامًا وهمومًا وأمانًا إلا أنه لم يحمل من قبل قلبًا يهفو إلى الماضي كقلب سلاطين.

شق المركب مياه النيل التي تتمدد وتتسع كلما توغلت إلى الجنوب، تحيل أشعة الشمس الغاربة مياه النهر سبائك ذهبية صانعةً بذلك مشهدًا خلابًا يتناغم مع نسيمات الهواء الرطبة التي تهفو من ناحية الجنوب، وكأن النيل يحاول أن يرثي قلبه على فقدان الجميع: أمين، وقمر، وقبلهما والده المهدي وأمه، تلك التي لا يعرف لها لقبًا ولا أين مرقدًا بالتحديد، فقد ذكر خير أن أمين لم يضع شاهدًا على قبرها.

خمسة عشر يومًا على سطح المركب، كان عماله كما أهل الجنوب في غاية اللطف والكرم، كان مُقلًا في الحديث، يميل إلى العزلة، كان يتأمل الشمس والقمر، يحلم بالكرداوي وخير ويتحدث إلى أمين في منامه ويبتسم حينما يتذكر ماليس، بلغ أسوان ومنها ارتحل راحلة وأرشده دليلٌ على الطريق حتى بلغ دروب الصحراء في الحدود مع السودان، وبعد مسيرة يومين وجد بئر الشيطان حيث يتعطر الجو برائحة الماء، جلس أمام البئر وهو يبحث بعينه يمينًا ويسارًا، ويتمتم:

- إن أمي هنا، ولكن أين هي؟

طال به المقام لساعات، وعلى حين غرة ظهر وعل نظر صوب سلاطين ولم ينزعج منه بل بدا وكأنه يدعوه أن يتبعه، تحرك الوعل في تودة -وقد بدا عليه الوهن- نحو تبة ترابية، جثم أمامها كأنه اختار أن يضع نهاية طريقه هنا، أعلى التبة نبتة كان لها ضياء الشمس، انتبه لها سلاطين وبدأ يقترب منها وظل الوعل باقيًا في هدوء وكأنه يرشده إليها، تفاجأ سلاطين بها، إنها النبتة الذهبية التي أخبره بها أمين وخير، جحظت عيناه، فتلك النبتة لا تنمو إلا بعد مرور ثلاثين عامًا، جثا سلاطين على ركبتيه، فلقد أدرك أنه أمام قبرها، لقد نبتت البذرة الذهبية التي كانت تقبض عليها أمه عند موتها. انسابت دموعه وهو يتمتم:

- هنا ترقد أمي".

تمت
رحمة الله عليك يا أمي

- (1) أعلنت بريطانيا دخولها الحرب العالمية الأولى في ٤/٨/١٩١٤.
- (2) جفان جمع جفنة، وهي أعظم القصاع، أي الوعاء الكبير.
- (3) قطعة من الصوف تغطي الجسم وقايةً من البرد.
- (4) دكة أو سرير للجلوس يُنسج من الخشب والحبال.
- (5) «كيف حالك»، وتستخدم للتمني بالصحة الجيدة.
- (6) ماذا تريد.
- (7) حالاً، واستُخدمت هنا بمعنى «منذ فترة بسيطة».
- (8) لا فائدة منه.
- (9) بمعنى ركز، من التركيز.
- (10) صاحب الأسنان المفلوجة المتباعدة.
- (11) شندي هي مدينة صغيرة في شمال السودان، تقع على الضفة الجنوبية الشرقية لنهر النيل على بعد ١٥٠ كم شمال شرق الخرطوم، تقع شندي أيضاً على بعد قرابة ٤٥ كم جنوب غرب مدينة مروى القديمة، وهي مركز قبيلة الجعليين ومركز تجاري تاريخي مهم.
- (12) □ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَصْلًا أَعْمَلَهُمْ ٨ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ٩ □ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْتَلُهَا ١٠ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ □ [محمد: ٨-١١].
- (13) الآن يُعرف بشارع رمسيس.
- (14) شارع عدلي حالياً.
- (15) تاريخ السودان نعوم شقير - دار الجبل - تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم، ص ١٩٩.
- (16) مشروب شعبي سوداني له أثر الخمر.
- (17) لم يكن كورنيش الإسكندرية قد تم تشييده بعد.